نتيلـــة التباينيـــة

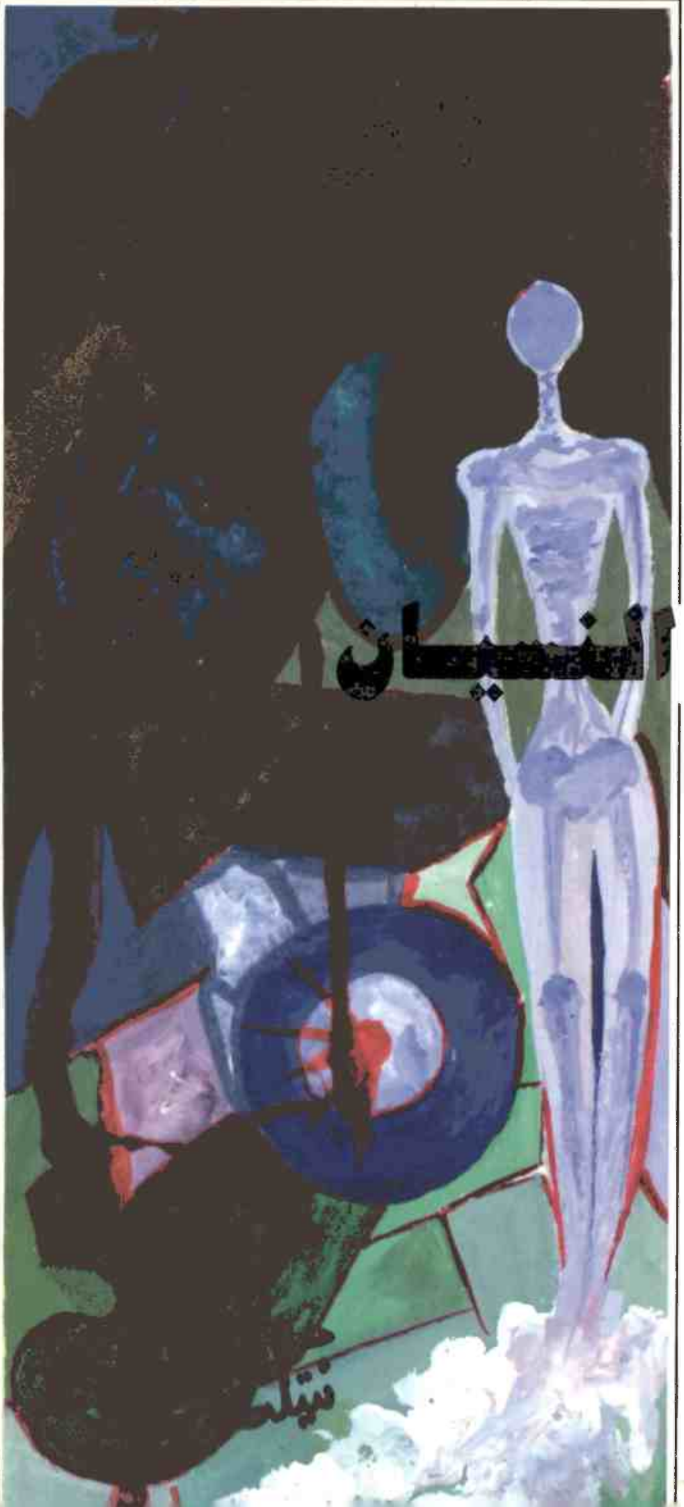

طريـق النسيان

الدار العربية للكتاب

نتيلة التباينية

عيسى يوسف الحموني

طريق النسيان

رواية

الدار العربية للكتاب

حظي هذا الكتاب بتوصية بالنشر
من طرف وزارة الثقافة

ISBN 9973-10-128-6 ر.د.م.ك

© جميع الحقوق محفوظة الدار العربية للكتاب
1993

حسني يوسف الحموشي

الاهـــداء

إلى روح الشـاب عبد الستـار التباينـية

وفاء لذكراه أخا وصديقا ورفيق طريق.

إليــــك

إليك كلما حركتني طفولة، وهزّني صبا، وأغراني شباب....

إليك مع كل بسمة وكل ضحكة وكل دمعة..

إليك في الالتقـاء في النقيض. داخل فسيفساء الأيـام وغزل الاشـهر وحبكة الأعوام.

إليك حتى أنسى هذا الحديث.

الحديث مع النفس عن النفس.

الحديث عن الآخرين ومع الآخرين.

الحديث، أو الكتابة عنك وعني وعنهم عذاب،

النفاذ إليك إليهم إلى أعماقي عذاب أيضا...

كيف أجدك وأجدني وأجدهم؟

كيف نلتقي؟؟ ونتحدث لغة واحـدة أو نسـير في طريق حديث واحد.

فطـريق الحديث الـذي أسلكــه في هـذه الـرواية طـويل، وبإصرار أريـدك كما أريــدهم وأنــا معكم أن نلتقــي، أن نجـد أنفسنا في هذا الطريق.

فالصعب في الكتابة في الحديث أن لا تجد نفسك.

الصعب في الكتـابة أن لا تشـدك الشخصيات ولا يحتـويك الإطار.

وبين هذه وتلك، كان همي الصدق، الإخلاص،
كيف أكون مخلصة في نقل الحديث إليك..؟؟
كيف أشـدك بصدق حـديثي إلى حديثي وأنـا الرافضـة أن تكون مجرّد راوية والثائرة، الثائرة على الصفة ذاتها...

نتيـلة التبـايـنـية

جانفـي 1988

دخل أحد شرايين القلب النّابض، باب الخضراء، إتجه نحو باب العسل.

إمتدت عنقه إلى الهرم الرّابض في قوة يصارع الأيام والأعوام «برج باب العسل».. جرت نظراته على صخوره الكبيرة الهائلة زفرت جوانحه:

«تآكل تآكل البرج، برج باب العسل، معلم من معالم المدينة العشق سينقرض».

تحرّك ببطء في الشارع الكبير، شارع باب سيدي عبد السلام حتى وصل ساحة باب سعدون، ومنها انحدر إلى باب الاقواس.

وهناك ضاع.

ضاع في الأمعاء.

أمعاء الحلفاوين.

دخل الأنهج الصّغيرة،، ومرّة واحدة وجد نفسه في حومة السّواحل،، ووجدهم معه، يتزاحمون على ذاكرته،، والده، بُوقمرة سعدُون الجقني،، خالته السيّدة والهادي وتوفيق وعبد الحميد. وتحركت شفاهه:

ـ حميدو؟؟!! أوه...

ورأى البيـوت، بيـوتهم، وأحسّ بتيار بـارد يسري في جسمـه، ونشّط تفكيره ورجع به إلى الوراء وسمـع أصواتهم الحبيبة،، الكل يناديه

ـ علي .... علي ماذا تفعل هنا؟؟

ذُهل عندما وجد نفسه أمام بوقمرة..وهتف بالرجل:

ـ عمّ بوقمرة؟؟!! أنت بخير؟!

ـ زمان يا علي.. كان زمان..

وامتدت يد بوقمرة تمسح دمعة فرت من عينه

ـ قل ماذا تفعل هنا؟؟

ـ اشتقت إلى حومة السّواحل وزنقة السيدة سمية..

وتنهّد الرجل

ـ أصيل !! . ولكن أيـن حومـة السّـواحل وزنقة السيـدة سميـة؟؟ تغيّرت الوجـوه ، دخلت وجـوه أخرى ضعت فيهـا. لم يبق من سكان الزّنقة إلا سعدون الجقنـي وأنا حتى القربوج مات لحق بوالدك رحمهما الله.

وشدّ علي يد بوقمرة في لهفة..

ـ خالتي السيدة! كيف حالها؟؟

ـ الكلّ يسأل عنها، ولكنّها لا تسأل عن أحد.

وسكت الرّجل قليلا ثم قال:

ـ وأنت يـا علي كيف حـالـك؟؟ وأمك؟؟ وأخـواتك البنـات؟؟ مـرَّ زمن لم أراهن فيـه. حنيفـة لم تكن لتغـادر زنقـة «السيدة سمية» لو لا إصرارك، كنت عنيدا أو مازلت كذلك؟؟

وزفر علي بقوة:

ـ أردتُ النّسيـان، واعتقـدت أنني بهروبي المتـواصل من الماضي وأحواله أنسى!!

ـ تنسى ماذا؟؟

ـ حنيني .. وجعي.. صغري.. ضعفي.. فقري..

ـ أنت ما شاء الله أستاذ!..

ـ جيبي عامرة والحمد لله..

ـ مما تشكو اذن؟؟

ـــ لم يعد للمال قيمة عنـدي وقد سعيت وراءه منـذ طفولتي، تعـذبت وأنا صغير حتى أكبر ولما كبرت كـرهت ما وصلت إليـه لأني لم أعش حياتي. لقد انسابت من بين اصابعي بطفولتها المؤلمة الجائعة وشبـابها الحزين الناقـص الثائر. كنت طفـلا بلا طفـولة وصبيا حانقا وشابا مضطربا حائرا مهزوزا..

واليوم..؟؟! وأنا الكبير صدمني واقـع الكبار نفسه، صدمتني الحقيقة، حقيقة الكبار التي أتلفت عليّ تلك الفترات الجميلة من طفولتي وصباي وشبابي..

إستند الشيخ إلى الحائط:

ـ أنت منذ الصغر متعب، أتذكر والدك؟؟

ـ ليتـه يُسامحني. كنت بشعًا . لأن الحياة هي الاخـرى كانت بشعة. بشعة جدًّا.

ـــ هي الآن بين يـديك اغتنمها، اغتنمهـا يا ابني لأنها دَوْمـا هاربة لا تنتظر أحدا. خذ نصيبك منها وانس اِنس يا علي..

شدّ بوقمرة على يد علي..

ـ والآن ألا تأتي معي؟؟

ـ فرصة أخرى إنشاء الله..

ـ كما تريد ، ومع ذلك دعنا نراك.

ما إن ابتعد الـرجل حتى تزاحمت الوجوه البعيدة القـريبة أمام علي. وجه عبد الحميـد المستدير الضاحك بشعره الأسـود الغزير والعينين السوداوين الـواسعتين، ووجه توفيق البـارد الذي يغلب عليـه بياض أولاد البـلاد مع لـون رمادي أزرق يتـواتر في عينيـه الصغيرتين. ووجـه الهادي الاصفر صفـرة الحاجـة المقيتة، صفـرة الجوع والخصاصة.

وظهر وجـه والده ليمحو كـل الوجوه الأخـرى بشفتيه البُنيتين

من تأثير الـدخان عليهـا وعظامـه البارزة وأسنانـه الصغيرة التي تحتك ببعضها كلما غضب.

ـــــــ أولاد الكلب يـاوْلاد الكلـب «مشـاة الخيل وقعـدت لبرادع»...

ثم وهو يلتفت إليه:

ـ إنتبه إلى دروسك «...يا فرخ»

ويغمض عينيـه على الصورة الحزينـة، ويراه يخرج من المنـزل، منزلهم بزنقة السيدة سمية بنهم السواحل وينحدف صغيرا أمامه

ـ أبي ... أبي حذائي تمزّق...

وتتحرك تقاطيع وجه الرجل غـاضبة ويرفع يده إلى فوق مهددا ثم تعـود اليـد مخذولـة لتربّت على رأس علي وتمسح على شعـره : وبِفَم مشدود يقول له:

ـ تعبّتني يا علي، أطلب الله إنه يحب الصّغار ويسمعهم.

ويبتسم علي في سره، والده يهدده دومـا بالضرب ولا يضربه.. ومع ذلك..

رفع وجهه إلى فـوق ثم خفضه ووجد نفسه يبتعـد شيئا فشيئا عن والده ويمشي، ومن ورائه سمع ضحكة قوية أثارته:

قال دون أن يلتفت الى صاحبها:

ـ تضحك دوما ؟؟

جرى الولد الضاحك وسدّ الطريق أمام علي..

ـ رأيت عمي مرتضى وهو يرفع يده ولا يضربك..

ـ ليضربني إن شاء فأنا أريد حذاء فهذا تمزق..

ـــ حذاء مرة واحـدة؟! أنا حتى اليـوم لم أشتر كتبي وخالتك السيدة في كل مرة تعدُني وتخلف...

وأغرق ثانية في الضحك

ـ ولكن !! لماذا تريد حذاء؟؟ افعل مثلي..

ـ أذهب إلى المدرسة حافيا..؟؟

ـ جرب إنك ستجد نفســـ...
ووضع علي أصابعه داخل أذنيه..
ـ لا تكمل.. لن أسمعك .. لن أسمعك..
وظلّ يغلقهما حتّى دخل بيته بزنقة السيدة سمية..

السيـدة سمية زقـاق بنهج السواحـل به مجمـوعة من البيـوت المتلاصقـة. يمينا بيت مـرتضى والد علي وبيـت بوقمرة وكـذلك بيت قـاسم اللـومي. وشمالا بيت السيـدة أم عبـد الحميـد وبيت حسن قـربـوج أمـا البابـان الآخـران فهما لبيت واحـد كبير، بيت سعدون الجقني والد توفيق.

وفي نفس النهج، نهج السواحل، عدة أزقة وأنهج أخرى فرعية تسكن فيها عائلات كثيرة.أولاد الكـراش والسرايري والدكارري والضحـاك والبـاروني. عــائلات كبيرة وفقيرة شأنها كشأن «أولاد البـلاد» تعتمـد على الصنعـة اليـدويـة لتكسب لقمـة عيشهـا. فالأغلبية حراريـة وبلغاجية وسرارية وصبابطيّة أو حـوّاتة وجزارة وخضارة.

ظل مرتضى واقفا وعلي يبتعد شيئا فشيئـا. وعندما وجد نفسه بمفرده في ذلك الصباح والخريف ينذر بقدوم فصل شتاء متعب، إنعطف نحـو نهج باب العسل في اتجاه السوق ولم يكـد يبلغ نهج الشرفاء حتى أطل عليه بوقمرة:

ـ صباح الخير يا مرتضى...
ـ صباح الخير يا بوقمرة
ـ كيف حال الأسعار في السوق؟؟
ـ نار مستعرة.. الرّمان.. السفرجل.. انظر..
وتابع مرتضى بوقمرة وهو يفك الأربطة عن الصناديق بمساعدة صبيّه وسمعه وكان يهمس متحسرًا:
ـ حال السوق لا تعجب يا مرتضى
ـ بل حال البلاد كلها ذهب إستعمار وجاء آخر..
إنتفض بوقمرة في مكانه..
ـ أسكت يا «رجل»..
وبعد؟ نسكت نحن!! يتكلم أولادنا.. علي لا يريد أن يسكت.. «هات باب.. هات باب..» والجيب فارغ والأفواه كثيرة والجوع لا يرحم..
لم ينقذ بوقمرة من غضب مرتضى في ذلك الصباح إلا قاسم اللومي الذي أدرك بعض حديثهما فقال في غبن:
ـ الجوع أهون من إمرأة جائرة...

وجم مرتضى وبوقمرة، وعاد قاسم يؤكد كلامه في غيظ: الجوع أهون من إِمرأة جائرة صدّقني.
وارتعشت أطراف مرتضى واندفع لا يلوي على شيءٍ إلى السّوق وعلى ظهره بعض الاطمار البالية. ودار قاسم على أعقابه يجر رجليه جرًّا، وهو يقطع نهج باب الخضراء ويجتازه حتّى القهوة .. «قهوة القوس» .. أو «قهوة باب الخضراء» أحسّ أنّ نظرات صاحبها سعدون الجقني تشيّعه في رثاء. وتذكر شتائم عويشة له في الليلة الماضيّة وكيف كانت تصرخ بها على مسمع من أجواره تمنّى لو تنشق الارض و تبتلعه.
في نفس ذلك اليوم، وفي الساعة العاشرة صباحًا، خرجت السيدة أم عبد الحميد من بيتها..

تركت نهج السواحل وراءها فنهج الزاوية البكرية فباب الاقواس فالتبانين، ومرقت بطحاء باب سويقة مسرعة الخطى حتى لا يراها جارها حسن قربوج فهو عادة ما يحوم في تلك الجهة خارج سوق الجزارين فدكانه يقع اخر السوق من الجهة اليسرى ويمكن أن يراها ويتعرف عليها. أسرعت في اتجاه نهج القصبة فنهج الباشا فبطحاء رمضان باي، ومن البطحاء خرجت إلى نهج «سيدي بن عروس» فأسواق المدينة حتى وصلت قبر الجندي المجهول وبسرعة خرجت من ظلمة الأسواق ووجدت نفسها في باب الجديد وهناك، وفي نهج النساء وقفت تنظر حولها ولم يطل إنتظارها حتى رأته من بعيد في القهوة تحركت في اتجاهه وانعطفت عندما أحست أنه رآها ابتعدت قليلا ووقفت.

وقف أمامها بقامته الفارعة لاهثا:

ـــ ماذا؟؟ ماذا بك؟؟؟!!!

قالت وهي تشد إليها طرف «السفساري»..

ـ إشتقت اليك..

ـ كنت معك يوم السبت..

ـــ يوم السبت؟؟ لم يعد يكفيني أن أراك مرة واحدة في الأسبوع وفي الشارع.

ـ والعمل؟؟

ـ قالت بحزم:

ـ سوف أكون في انتظارك إن كنت تريد ذلك..

ـ أين؟؟؟

ـ في البيت

ـ بيتك؟؟!

نظر في عينيها مباشرة وهولا يكاد يصدق ما يسمع..

ـ زنقة السيدة سمية؟؟!!!

زنقة السيدة سمية..

ـ والناس..؟؟ كنت دوما تخافين الناس..

ــ كنت..
واليوم ماذا تغيّر؟؟
ــ أنا التي تغيّرت.. تغيّرت

دفع علي عبد الحميد في صدره..

ــ مــاذا بك اليـوم؟ إنك لا تضحك.. أو مـــازلت تفكــر في الكتب؟؟ إستعمل كتبي حتى تشترى لك خالتي السيدة كتبا.

ــ الكتب؟؟ لالا نسيت الكتب نسيتها.

ــ بماذا تفكر اذن؟؟

ــ أمّي..

ــ ما بها أمك..؟؟

ــــ تخرج كثيرا هـذه الأيـام تـرى إلى أين تـذهب يـا علي إلى أين..؟؟

ــ وأنت ما يشغل بالك؟ هل تخاف عليها..؟؟

ــ لا أدري.. لا أدري..

وفجأة وجـدا الهادي يقف أمـامهما في مفترق الطرق بين بـاب سعدون وباب الأقواس قائلا:

ــ انتبها..

ثم ووجهه يزداد صفرة..

ـــ اليوم بدأنا الإختبار الأول في مادة الجغرافيا «درس الإنجراف»..

قال عبد الحميد لا مباليا..

ــ سوف لا يكون نفس الدرس..

وأضاف الهادي..

ــ عندي لكما مفاجأة أيضا معلمة اللغة الفرنسية سوف تتغيب بعد الظهر..

وهو يوجه كل اهتمامه إلى علي..

ــ ما رأيك؟ .. ما دمنا لا نذهب إلى المدرسة بعد الظهر لو نلعب بالكرة، أختي صنعت لي كرة صغيرة من صوف الكبوس..

قال علي:

ــ والشهادة؟؟

ــ ما زلنا في أول السنة الدراسية..

ــ لا أريد أن ألعب .. أريد أن أنجح..

ثم وبغيض وهو ينظر إلى حذائه:

ــ أريد أن أنجح حتى أشتري لنفسي الأحذية.

واتقدت الحبات الكهرمانية في عينيه الكستنائيتين وانزلق شعره من الارتعاش فوق جبينه...

ــ أحذية وأشياء أخرى لا يقدر والدي على شرائها لي.

وأحس الهادي بالإحراج..

ــ وأنا .. أنا أيضاأريد أن أنجح يا علي حتى أشبع بالخبز على ا لاقل..

ــ اذن دعنا من الكرة..

وسمع علي عبد الحميد يخاطب نفسه.

ــ أحذية وخبز وكتب، هنيئا لك يا جقني يا توفيق!!

وضرب علي كتف عبد الحميد في غيظ

ــ لا تذكر اسمه أمامي..

قال له عبد الحميد مسلما:

ــ نسيت نسيت أنك تكرهه..

ــ أنا لا أكره أحدا ولكن أنت!..

كفّ عن ذكره أمامي.

ــ إنه جارنا وتِرْبُنَا في القسم و........

ــ يكفي .. يكفي..

وأسرع الخطى وعبد الحميد وراءه حتى مدرسة باب سعدون.

عشيـة ذلك اليـوم دخلت حنيفـة أم علي بيت حسن قـربـوج فوجدت زبيدة بجانب ابنتها المريضـة ومعها عويشة زوجة قاسم اللومي، سلمت وجلست قرب المريضة

ــ كيف حالها يا زبيدة.؟؟

ــ من سيء إلى أسوأ.

ــ والطبيب ماذا قال؟؟

وتدخلت عويشة :

ــ سنأخـذها غدا إلى سيدي الحلفاوي هناك مـؤدب على بركة عظيمة..

ــ ماذا ؟؟ مؤدّب بعد « الطّاهر محجوب»

ــ «لكل وليّ برهان» .. نجرب الطبيب والمؤدب.

سكتت حنيفـة مـدحـورة، وعنـدمـا أرادت أن تغـادر البيت شدت عويشة على كتفها وأجلستها ثانية..

ــ مالك؟؟ إبقي بعض الوقت معنا!

ـ قد يعود مرتضى إلى البيت ولا يجدني..
ـ دعيه يشتاقك..

وضحكت حنيفة..
ـ كبرنا ولم يعد بيننا إلا إلتزامات وواجبات وأولاد...
ـ مرتضى هادىء وطيب
ـ أحيانا..
ـــ على كل ليس مثل زوجي، « القلب المقهور والناصري المخسور»
ـ الرجل لا يقدر بالمال، فكيف يكون قاسم مجرد «ناصري مخسور»؟؟ ساعديه يا عويشة على محنته حتى يجتازها.
ـ ماذا أفعل انني اصرف على البيت من مال والدي؟؟

قالت زبيدة وهي تنظر الى عويشة في حزن:
ـــ أنت تظلمين قاسم يا عويشة قاسم في حاجة الى رعاية كبيرة خاصة بعد ما خسر وظيفته أمّا البيت ومصاريفه فهو بيتكما معًا..؟ أنت يا عويشة تمعنين في إذلاله.
وضربت المرأة على صدرها العريض.
بقوة: أنا؟؟
ـ أنت، انظري إلى كل هذه الادوية إنني اشتريتها من مال أخي النّاصر الذي يمدّني به خلسة عن حسن زوجي حتى لا يجرح احساسه.
ـ وكيف؟؟ ألا يسأل زوجك من اين لك هذا؟؟
ـــ يسألني وأراوغه وسعاد كما هي ابنته ابنتي أنا أيضا، وهو يعرف أنه لا سندلي غير اخي الناصر.
سكتت النسوة عندما أطلت عليهن أم عبد الحميد وقالت:
ـ كيف حال سعاد يا زبيدة؟!
ـ إنها كما تركتها بالامس يا سيدة.

ـ الله لطيف.. الله لطيف..

وحيتهنّ وعادت من حيث أتت..

قالت عويشة وهي تشيعها بنظرة فيها عدة معاني وترفع حواجبها الى فوق في سخريّة:

ـ رأوها مع رجل...

إلتفتت حنيفة مرة واحدة الى عويشة

ـ هي حرة..

ـ حرة؟؟؟

ـ « اللي هازز قربة على ظـهرو تقطر».. ثم قد تكون كذبة..

ـ فاطمة لا تكذب..

ـ من فاطمة هذه؟؟

ـ جارتنا التي تسكن نهج سيدي سلطان.

ـ لا أعرفها..

ـ أم الهادي رفيق علي في المدرسة.

وما يضيرها ويضيرك؟؟

لم تشأ زبيدة أن تترك الجارتين تتصادما فقالت تغيّر الحديث:

ـــ إسمعا بعد غد الاربعاء، ما رأيكما في زيارة مقام السلطان؟؟

قالت حنيفة وهي تشدّ طرف ثوبها في عصبيّة.

ـــ «شيء لله .. وشيء لأولياء الله». سأزور معك سلطان المدينة «سيدي محرز»..

ثم وهي تنظر إلى عويشة بطرف عينها..

ـ وأنت يا عويشة ما رأيك؟؟

ـ سأكون معكما.

إمتدت يـده تبحث عن علبة السجـائر وجدهـا فارغـة. تنهد وراح يبصق في الظلمـة. شـدت حنيفة ذراعـه وربتت عليهـا في حنان..

ــ مالك يا مرتضى؟؟ ألم تنم بعد؟؟

ــ من أين سيأتي النّوم؟؟

ــ لماذا؟؟

ــ عييت بنفسي يا حنيفة..

والسبب؟؟

ــ السوق كاسدة وأنا أضيع وأنت وأولادك من ورائي..

تنفضّت المرأة في فراشها واستوت جالسة

ـــ أين الجديد يـا مرتضى؟؟ اننا تعـوّدنا هـذه الحالة نطلب فقط من الله أن يُفرجها عنا؟؟

ــ علي لا يريد أن يتعود..

ــ علي !!؟ دوما علي!!

ـــ انني أشعر أنني مغلوب أمـامه في كل مرة أعجـز فيها عن

تلبية طلبه.
ـ أنت حسّاس جدا يا مرتضى رغم أنّ ظاهرك يوحي لمن لا يعرفك بالخشونة وأرجو ان لا يكتشف علي ذلك فيك فيستغلك.
ـ لم يطلب الكثير يا حنيفة، حذاء مجرد جذاء..
ـ والحذاء الذي يلبسه ماله؟ أووف هذا الولد!!

ورجعت برأسها إلى الوراء ووضعته على الوسادة ولم تنم...
ليل الفقراء هَمّ لا ينتهي..
إنه حلقة تشد حلقة، مشاغل وحاجات صغيرة ولكنّها كبيرة بالنسبة لهم ومصيرية أيضا.

حلقة الهمّ تخنق علي في ذلك الليل الساكن الأخرس.
يشعر بالبرد وينكمش داخل الغطاء ويسرح بعيدا:
«قدم فصل الشتاء بأمطاره وأوحاله...
ويتذكر توفيق الجقني وأحذيته الجلدية العالية فينتفض في مكانه..
وينهض ويجلس في فراشه ويتكور على نفسه
وينظر إلى فوق في الظلمة..
يا رب.. يارب..!!

وتلتف الحلقة حول عبد الحميد ولا ينام يؤرقه السؤال:
ـ أين تخرج امك يا عبد الحميد؟ أين تخرج السيدة؟؟
ونفس الحلقة تعتصر السيدة فتسقط في موجة مقيتة من الحرارة والاجهاد تتقلب ذات اليمين وذات الشمال تتأوه:
ـــ هل يأتي فرج؟؟ هل يدخل بيتها؟؟ يدخل بيتها؟؟ والنّاس؟؟!!

وتنتفض في مكانها وتهب واقفة والحرارة المقيتة تجتاح بدنها..

وتصرخ منفعلة:
ــ لا.. لا..
ومن الداخل يأتيها صوت عبد الحميد..
ــ أمي .. أمي أنت لا تنامين..؟؟
وتفتح فمها لتقول شيئا ولكنّها تعود إلى فراشها وتهمد مرعوبة.

نفس الحلقة تعتصر حسن قربوج، ووجهه إلى الحائط، وهو ممدد فوق سريره، يقول في اعياء لزوجته:
ــ سوف تكسد سوق الحوت مع قدوم فصل الشتاء يا زبيدة..
ــ لا عليك يا حسن عندنا ما يستر والحمد لله..
ويلتفت إليها بقوة وينظر بعينيه الضيقتين إلى ابنته المريضة وأصابعه تفتل شنبه بلا حرص..
ــ من أين؟؟ من أين نأتي بمعلوم الدّواء؟

وتُزاوِر زبيدة في حيرة:
ــ لَا عليك.. المهم النتيجة أنظر، أنظر ألا ترى أنها على أحسن حال الليلة؟؟
فتمتد يده لتشد على رأس إبنته
ــ الحرارة هي نفسها يا زبيدة.
ــ لا .. لا.. هي تنخفض تدريجيا..
ــ ارجو ذلك.. (ويتنهد بقوّة)
ويضيع حوار القربوج وزوجته زبيدة في صراخ عويشة ويدرك كل منهما أن قاسم اللومي أنهى جولته في الحانات وعاد مخمورا:
عاد ليتكلم ليقول ما لم يستطع أن يقوله وهو صاح ليثور على نفسه والظروف والاوضاع السياسِية.
وتظل سالمة ممزقة بين والدها قاسم وأمها عويشة تظل

ضائعـة، ثم تغفل عنهما عندما تملّ، وتدخل بخيـالها نهج سيدي سلطان ولا تبرحه حتّى يأخذها الكرى.

والحلقة تدور. تدور ولا ترحم . حلقة الهموم.

ويستيقظ بوقمـرة الذي ينـام باكـرا على صراخ عويشـة ليجد فتيل الـزيت بجانبـه هو الآخـر يكا بـد همومه يصـارع من أجل البقاء.

فتمتد يده إلى «حلاب» الماء بجانبه ويشرب منه جرعة صغيرة وتصطـدم نظراتـه بالـوسادة الخاليـة بجـانبه وبـالسرير الـواسع العريض فيهتف بمرارة..

«هل حقا حقا ذهبت يا زنيخة.؟؟ خرجت من حياتي!!

ويغالب دموعه..

كل شيء مـا زال على عهـدك بــه... السريـر، الخزانـة، حتى الوسادة، السفساري، اطهاق، القُبقاب، سطلْ الحمام. شيء واحد غيّرته الإطـار الكبير الذي كنت تضعين فيـه صورة الشـاذلي إبننا وضعت فيه صورة كبيرة لك ويتنهد:

الشاذلي تركني يا زنيخة. يريد شهادة كبيرة من «فرنسا» ليوفقه الله.

وينزلق من سريره وقد بـدأت خيوط الفجر الفضية تمزق سواد الليل..

ويخرج من البيت ويتحــرك حتى سقيفــة المنــزل وصـــوت القبقاب في رجليه يـؤنسه ويدلي بدلو في البئر ويـرفعه والماء البارد يفيض على جنباته ويضعـه أمامه ويأخذ في غسل أطـرافه ليخرج بعد ذلك للصلاة بجامع صاحب الطابع.

وقبل أن يغادر الدّار يضرب بيده على باب بيت أخته:

ـ شامة، يا شامة.
ومن الداخل يسمع صوتها
ـ صباح الخير يا بوقمرة
ـ صباح الخير ماذا تريدين للغذاء اليوم؟
ـ ما تشتهيه نفسك يا أخي،

ويخرج بوقمرة إلى دكّانه بنهج الشرفاء.

دخل رجل غريب حـومة السـواحل وعلى وجه التحديـد زنقة السيدة سمية. هذا الرجل استقر ببيت السيدة أم عبد الحميد.

انتشر الخبر كـالعـدوى في الحومـة والأزقة المجـاورة. تنـاقلـه الكبار والصغار.

وانكمش عبـد الحميـد على نفسـه، انكمش فـرّ من ألسنـة الصّغار ونظـرات الكبار. هـرب بهمومـه إلى علي وأحبّه وكـره أمه التي استقبلت فرج ذاهلـة في باديء الأمـر وشيئا فشيئـا أفاقت، نشطت، وقـد تكسّرت جـوانب حلقـة الهم. وراحـت تنظـر إلى وجهها في عيني عبد الحميـد فرأته مرعبا بشعـا فتركته واستجارت بمـرآتها واطمأنت الى العنين السوداوين والانف الـدقيق والوجـه المستدير والشعر الأسود الفاحم.

إنها جميلـة. وصغيرة وفي حـاجـة إلى رجل وفـرج رجلهـا حتى يُسّوي قضيتـه مع زوجتـه وسوف تنتهي القضيـة بالطـلاق ففرج يحبها.

كان جـار الطفولة بباب الجديـد، احبها وأحبته ولكن والـدها فرض عليها ابن عمهـا فتزوجته عن كره وأنجبت منـه عبد الحميد ولم يعمّر هـذا الزواج طويـلا، مات ابن عمهـا بعد زواج دام سبع سنوات فقط وجدت بعده نفسها وحيدة.

فرج هو الآخر تزوج.

عندمـا إلتقته أول مرة بعد مـوت زوجها في بيت والدهـا قال: إن زواجه فاشل تلاقت العيون وتواعدت في صمت.

أقام فرج ببيتهـا رغم الناس والتقاليد وتلـوى عبد الحميد رغم صغـره من الألم والهزيمة فكلما التقت نظـراته الحائرة بعيني فـرج إلا واصطدمت بأخرى قاسية مخيفة فترتخي أجفانه ويسقط رأسه الصغير على صدره في فزع، ويأبى فرج إلا أن يعذبه..

فالكبير لا يمارس فن التعذيب الا مع الصغير.

فكـان يقبّل أمـه أمـامـه يـداعبهـا ويحضنهـا وكـانت تنسى نفسها...

ويفرّ عبد الحميد..

يفر إلى أي مكان يبكي ويتوعد..

حرّك علي رأسه يمنة ويسرة يائسا ثم قال:
ـ هل هذا هو الحذاء يا أمي؟
تقدمت منه بقامة فارعة ووجه أبيض يشع من نظراته الدفء والحنان وقالت:
ـ ماله يا علي؟؟ ألا يعجبك.؟؟
ـ لا أريد هذا الحذاء المطّاطي أريده من الجلد.

وضعت المرأة يدها على خدّها مبهوتة وهتفت:
ـ من الجلد مرة واحدة من تظن والدك؟؟ الجقني؟؟!
وجُنّ جنون علي وراح ينشج..
ـ وهل أنا أقل من توفيق؟؟
ـ أنت لا!! ولكن والدك أقل من الجقني..
أدخل أصابعه في أذنيه
ـ أسكتي.. أسكتي يا أمي...
ثم وهو يبكي
ـ أنا أحسن من توفيق في القسم أحسن منه..

واحتضنته أمه..

ـ الحمد لله أنك أحسن منه في القسم لذلك لا يجب أن تنظر إلى أدباشه وأحذيته. معك ما تمتاز به عليه.

ـ أنا لا أنظر إلاّ إلى توفيق الجقني وأحذيته.

ـ سوف تتعب، النظر الى فوق متعب يا ولدي

وبعصبية إنفلت من حضنها:

ـ والنظر إلى تحت، النظر إلى تحت يا أمي؟؟

وسالت دموعه غزيرة، وارتجف جسده الصغير من شدة البكاء، وتعكر صفاء الحبات الكهرمانية في العينين الكستنائيتين..

وعانقته «جودة» بحب.

ـ لا يا علي.. لا تبك يا أخي.. سوف تنجح.. وتكبر وتشتري لنفسك ما تريده.

وأخرج لسانه في غضب.

ـ أنا أكبر أكبر؟؟

ـ تشجع.. تشجع..

وامتدت يدها إلى الحذاء المطاطي..

ـ هيا.. خذ.. جرّبه.. إنه على كل أحسن من هذا الذي تلبسه.. هيا.. أدخل رجلك.. هيّا..

عندما وضعه في رجليه ابتسم..

ـ أرأيت ألم أقل لك؟؟

وأخذت الحذاء القديم ورمت به في المزبلة..

وسمع علي عبد الحميد يصفّر في الخارج فاندفع إليه لا يلوي

على شيء..
وانقطع صفير عبد الحميد مرة واحدة وهو ينظر إلى حذاء علي
ـ ما هذا؟؟ ما أجمل حذاءك!!

وانكمش علي اعتراه خجل شـديـد وهـو يـرى رجلي رفيقـه الحافيتين وأحس بـرغبـة كبيرة في خلع الحذاء حتى يكون حـافيـا مثل عبد الحميد وانتبه الى رفيقه يتمتم في ذل..
ـ لو كان والدي حيّا..
وارتمى على يحضن عبد الحميد..
ـ إنني مثلك يا حميدو..
ـ وعمي مرتضى؟
ـ عمّك مرتضى فقير، ورجل فقير مثله مثل رجل ميت..

تخلص عبـد الحميد من حضـن علي واتسعت عيناه من شـدّة الغضب.
ـــ ورجل غريب في بيتك؟؟ يـزاحمك.. يضربك يقبّل أمك، يُتْم أم فقر أم ماذا؟؟؟ ماذا يا علي؟ ماذا..؟؟

وراح يجري وعلي وراءه وضاعا في الأنهج.

خرجت حنيفة وزبيدة وعويشة إلى سلطان المدينة سيدي محرز ابن خلف يوم الاربعاء حسب الموعد المتفق عليه. وهذا اليوم تقام فيه الولائم وتتلى الآيات القرآنية يكتضّ صحن المقام ويغص البهو بزوار الولي الصالح من سكان العاصمة وخارجها.

ظل النساء الثلاث يتعثرن بين أكوام البشر حتى وصلن سارية الولي، داخل المقام الذي يعبق برائحة البخور والعنبر فقرأن الفاتحة وعقدن الأشرطة الصغيرة ودرن هنا وهناك وشربن الماء وأخذن القليل منه في القوارير، واشترين الحلوى والتكوى وجاهدن حتى وصلن الباب الكبير أين استقبلتهن الامطار الغزيرة. وانكمشت كل واحد ة منهن داخل «السفساري». قالت زبيدة لحنيفة في يأس:

ـ سوف تكسد الأسواق يا حنيفة، كل الأسواق.

ـ إرادة ربنا يا زبيدة. إرادة ربّنا..

وهن يمشين بخطوات متعثرة بين قهوة بن ميلاد والعروسي الفزاني قالت عويشة للمرأتين وهي تتحرك خلفهما ببطء

لسمنتها:
ــ أتذكران هذا المكان وخـاصة البطحاء يوم خرجنا اليها دون إذن من أزواجنا؟

وردت عليها حنيفة بلهفة:
ــ أذكرها وكأني أسمع اللحظـة عويل النساء بين جنباتها يوم جاءنا نعي ــ سيدي المنصف بـاي ــ كان علي ابني قد بلغ شهره الخامس.
ــ و كان عمر سا لمة آنذاك أربع سنوات وهي كبرى أولادي.
وتنهدت زبيدة وقالت:
ـــ خـرجت مع من خـرج في ذلك اليوم.. تـركت سعاد عنـد جدتها، كانت في سنتها الثانية، يومها شعرت بالخوف وقد إختلط الحابل بالنّابل في قهوة الغرابة.

شتاء ذلك العام كان قاسيا..

تذمـر منه الكبار والصغـار، كسدت فيـه الاسواق.. وتعطلت المصالح، وأنسلخ جلد قـاسم اللومي في «البرط» وانكمش حسن قربـوج على نفسه وذخيرة الصّيف في البيت تحتضر وحـال سعاد تزداد سـوءا . ومرتضى يتأفف ويتوعد ويشتم وتنتهي جـولاته في السوق بالخيبة والفشل ويلتفت إلى محمد الذي لا يقل عنه فشلا:

ــ أولاد الكلب يا ولاد الكلب..

ــ من تشتم يا مرتضى؟؟

ــ الكل، الكل يا محمد..

ويندفع خارج السوق ووراءه محمد

ــ زمن كلب وعيشة كلب وكلهم كلاب..

ويسكت عن الهذيان عنـدما يرى علي وعبد الحميـد يدخلان زنقة مخلوف. ومرة واحدة يلتفت علي الى عبد الحميد غاضبا:

ــ زنقة مخلوف دومـا زنقة مخلوف!! أنا لا أدري لماذا تحب هذا المضيق قلت لك ألف مرة أريد أن أدخل إلى حومة السواحل من

نهج «الزاوية البكرية» أنا لا أريد أن أصطدم بوالدي؟!
ـ هذا المضيق الذي تكرهه يـذكرني برجل طيب كوالدك كان يحملني وأنا طفل، إنه أبي.
ـ والدي طيّب وصغير..
ـ لا أفهمك ..
ـ لا أريد أن يكون لي والد مثل والدي لا أريد..
أريده مثل سعدون الجقني...

ويندهل عبد الحميد وغاضبا يردّ عليه.
ـ وأنـا لا أريد أن يكـون والدي مثل سعـدون الجقني.. انه لا يبتسم لي مثل عمي مرتضى ولا يحيّيني مثلـه ولا يفرك شعر رأسي بأصابعه الغليظة...
ـ والدي يفعل ذلك لأنه صغير، الصغـار كل الصغار تفعل مثل والدي..
ـ ماذا تقول يا علي؟!
ـ قلت: الصّغار تفعل مثل والدي تعطي البسمـة والأصابع الغليظة التي تفرك لك رأسك ولا شيء غير ذلك ... لا شيء...

أشهر السنة تمضي بلا عـــودة...

وتـلاميـذ السنة السّـادسـة ابتـدائي بمـدرسة بـاب سعـدون يتضاعف مجهودهم. وتنكمش الأغلبيـة على نفسها تعادل وتطرح وتجمع. صـورة توفيق الجقني ببهـائهـا تكبر أمام علي وتكبر حـدّ الخوف والهلع:

«لا بد، لا بد أن ينجح أمام هذا الكبير..

وعبد الحميـد هو الآخـر يهادن فرج في فـزع لا يريـد أن يفشل أمـامه. والهادي يـزداد اصفرارا واصراراً وقـد رمى بكرة الكبّـوس فوق سطح البيت وتـوفيق الجقني تضيق عيناه وتصغـر على اللون الرمـادي الأزرق داخلها وهو يعد الأيام قبل الإمتحـانات التي لم تكن سهلة». ثم يَعُدّها بعصبية في انتظار النتائج قال له سعدون الجقني ذات مرة مهدّئا:

ـــ إهـدأ يـا تـوفيق انني على اتصال دائم بصـديقي يـوسف الرّصاع فهو إطار بارز بوزارة التعليم كما تعرف...

وتضيق العينان على الزرقة الرمادية و يقول توفيق لوالده.
ـ والبقية.. البقية يا أبي؟؟
ـ آ.. ابن مرتضى والسيدة..
ـ أجل يا أبي..
ـ نسيت لقب عبد الحميد..
ـ بن بدر.. بن بدر يا أبي..

كانت الطّرَقات قويّـة على الباب ، إستفاق لها مرتضى وارتمى خارج سريره، تعثر في إحدى بنـاته التي كانت تغط في نومها على الارض.

كان جسـده يتصبب عرق أواخـر شهر جـوان، وفجأة بردت أطرافه وهو يلهث حتى سقيفة الدار، فتح الباب بسرعة

ـ سي سعدون؟؟ صباح الخير

ـ صباح الخير.. مبروك..

فرك مرتضى عينيه

ـ مبروك؟؟ على ماذا؟؟

ـ علي نجح وابن السيدة أيضا..

إرتعش الـرجـل وأراد أن يجري إلى الـداخل.. ولكنّـه تـوقف فجأة:

ـ وتوفيق؟!

ـ توفيق هو الآخر نجح..

وأراد مــرتضى أن يـرتمي في حضــن سعـدون الجقني،لكنــه تصلب في مكانه ولم يتحرك..
..« خسـارة أن يدعك بجسـده المتصبب عرقـا جبّة سعـدون الحريرية»!!

ثم وهو ينظـر الي الزرقة الـرماديـة في وجه الرجل وقـد ضاقت الأهداب عليهـا والتمعت في العنين الضيقتين المستكينتين سعادة وفرحا:

ــ ولكن هل ظهرت النتيجة؟؟ وأين نجدها؟؟
ــ لا، لا لم تظهر بعد، عرفت النتيجة من أحد المعارف.

وأحتضن مـرتضى علي بشـدة، وبكى هـذا الأخير وسأل عن عبد الحميد وتذكر الهادي وتمنّى له النجاح هو الآخر وسأل والده عن معنى: معارف.

فقال له والده الكثير ولم يفهم إلا القليل..
ــ معارف مضلمة جاءت بعد 1956..
ولم يفهم مــا معنى 56، ومـا دخـل هـذا التــاريخ في تفسير الكلمة..

قال له والده أيضا:
معارف وأكتاف وقرابة وأولاد جهة و. و.
وانشغل عن والـده بفـرحته وهـو يـراها مجسـدة في عيني أمـه وأخواته..

دقّت الباب.. مرة .. مرتين.. ثلاثة..
ووجدته يقف أمـامها بقوامه الفارع ووجهـه المستدير الأبيض الباسم.

ـ سالمة مرحبا بك في نهج سيدي سلطان!

ثم وهو يجذبها إلى بيت بجوار سقيفة الدّار

ـ أدخلي..

ودخلت وهي تنظر وراءها..؟؟

ـ كيف استطعت المجيء.؟؟

ـ الكل في دار سعدون الجقني.. الصغار والكبار..

ـ ماذا هناك؟؟

توفيق نجح كذلك علي وعبد الحميد..

ـ هل ظهرت النتيجة؟؟

ـ عمّ سعدون معارفه كثيرة..

نظر في عينيها..

ـ هل ستبقين طويلا؟؟

ـ لا.. لا يا هادي..

ثم وهي تنظر إلى صحن الدار..

ـ أين هند؟؟

ـ بجانب أمّي كالعادة.. شلل أمي شلّ حركتها هي الأخرى

ـ ليكن الله في عونها..

ـ أتدري يا سالمة؟؟ عقبةٌ واحدة مازالت أمامي السنة الدراسية المقبلة. لو أنجح في امتحان الباكالوريا فلن أدخل إلا كلية الطب..

ـ كلية الطب؟! ما معنى كلية الطب؟؟

ـ أدرس الطب لأتخرج بعدها طبيبا..

ـ أنت؟؟!

أجل أنا..

وترددت وهي تقول:

ـ سوف تكبر وأظلّ..

ـ ماذا تقولين؟؟ أكبر وأنت معي وسوف تكونين أول من أكشف عليها..

وضحكت غير مصدّقة..

ـ أنا؟؟

ـ أجل أنت..

ثم وهو يقترب منها.

ـ يالي من غبيّ، لماذا لا أبدأ الكشف الآن.؟؟

وأحمرت خجلا وضاعت في كلامه.

التقى الأربعة في نفس الفصل بالمعهد الصادقي، علي وعبد الحميد وتوفيق والهادي.

منذ الأيام الأولى تقلصت فرحة علي بالمعهد، بالصادقية. تقلصت أمام أسئلة الأساتذة المحرجة

ـ إبن من أنت؟؟

ـ والدي مدرس بمدرسة فرانسفيل؟؟

ـ من ؟؟ سي محمود قحّة..

ـ أجل يا أستاذ..

ـ وأنت...؟؟

ويتمتم علي في سره: هو؟؟!

ويلوك مرارة بغيضة..

ـ إبن سعدون الجقني وما أدراك..

ويغمض عينيه بقوة،

وكان الأستاذ يصرّ على أن يعرف كل شيء عن توفيق فقال مستفسرا

ـــ القهـوة التي تقـع حـذو القـوس.. قـوس بـاب الخضراء لوالدك؟
ــ أجل يا سيّدي
ــ وأنت..
ــ وأنت

ويفيق ليجد الأستاذ أمامه..
ــ وأنت؟؟
ــ أنا؟؟؟!!!
ــ نعم أنت..
ــ والدي دلال. (وبينه وبين نفسه **روبافيكاتي**)

ويسقط في مكانه وحمرة الخجل تصهـر كل جسده ولا ينتبه إلى عبد الحميد ولا الهادي، يظلّ يتمسك بمقعده في ذل..

وآلمه تصرف بعض الأسـاتـذة وحــزّ في نفسـه كثيرا ومع ذلك وجه كل طاقته نحو دروسه. وكان كلما اجتهد ازدادت قسوته على كل من حولـه وعلى نفسه أيضـا. وشغلته الـدروس والمذاكرة عن عالم الألقـاب والأسماء، وانكمش على نفسه تقـوقع، ابتعـد، كان كل همه ان يرجح الكفّة التي أمالها منذ اليـوم الأول أساتذته نحو أبْنـاء الذّوات والمعـارف. وخرج الأول في الثـلاثة الأشهـر الأولى وابتسم في سره..
.. لهم ألقابهم ومعارفهم ولي أعدادي ورتبتي..

ووجـد عبـد الحميـد وراءه في الـرتبـة وكـذلك الهادي. عبـد الحميـد والهادي قبل تـوفيق هـذا ما أراده ويـريـده لهما انـه ينتقم بالنتائج في القسم نتـائجه ورفيقيه من توفيق وأمثـال توفيق، وبدأ يطالبهما ثم يحاسبهما ثم يسيطر عليهما.

ذات يوم عند الخروج من المدرسة قال علي لعبد الحميد غاضبا:

ـ أنت ألا تخجل؟!أ

ـ مِنْ ماذا؟؟

ـ من تصرّفك؟؟

ـ ماذا فعلت؟؟

ـ الكل، الكل يعرف أنك فقير لماذا تشنّع بنفسك إذن؟؟ لست وحدك.

ـ من شدة خجلي..

ـ تقوم وتشنع بنفسك؟؟

انها حقيقتي: فقر وجوع وأحذية ممزّقة.

ـ يعرفون كل ذلك..

ـ وأنا انما أريد أن أذكرهم بذلك دَوْما

ـ وتُسيء إلى نفسك؟؟ أنا مثلك.. والهادي أيضا.. ولكن أنا والهادي لا نتصرف مثل تصرفك الأحمق.

ـ أنا لست مثلك ولا مثل الهادي أنا خائف خائف يا علي..

ـ من ماذا؟

ـ أو ما زلت تذكر ماذا فعل بي الصبية يوم دخل فرج دارنا حتى الكبار كانت نظراتهم مخيفة قاسية؟؟

ـ ما دخل فرج في حكايتنا هذه.؟؟

ـ التشنيع يقتل في نفسي الخوف ويوفر علي كلامهم وسخريتهم وأضحك على نفسي قبل أن يضحكوا وأبكي أبكي..

ووجد عبد الحميد نفسه مرة واحدة ينخرط في بكاء مرير. وضع علي يده على كتف عبد الحميد دون أن يقول شيئا، وبخطوات رتيبة اجتازا نهج القصبة ونهج باب سويقة ودخلا سوق الجزارين ومنه خرجا إلى الحلفاوين.

الحلفاوين قلب تونس النابض، لهذا القلب عدة شرايين.

الشريان الأول نهج السيدة مسيكة ومنه نخرج إلى نهج باب الخضراء والشريان الثاني نهج الحلفاوين ويأخذنا رأسا إلى سوق الجزارين فنهج الكبدة والثالث نهج القنطرة ويتفرع إلى نهجي السواحل ونهج باب العسل، أما الشريان الرابع فهو نهج سيدي العلوي فباب الأقواس فباب سعدون .

وللقلب النابض أيضا شريان آخر صغير وهام سوق مغطاة تفتح ببابين كبيرين الأول وقبلته نهج سيدي عبد السلام والثاني البطحاء، بطحاء الحلفاوين الذي يقف أمامها شامخا جامع صاحب الطابع.

داخل هذه السوق المغطاة توجد دكاكين الحرارية والسرارية والشواشية ودكاني حلاقة وأيضا قهوة صغيرة.

وفي هذه القهوة الصغيرة وجد فرج متعته فكان يطرب لأدوار السيد درويش والشيخ حسنين وعبد الحي السفطي ومحمود

صبحي وأبو العلا محمد..

تعـرف فـرج في قهوة السـوق على الحبيب الضحّـاك من «دار الباشـا» وعرّفه هـذا الأخير الى جليسين آخرين وهما أنـور الباهي من «البيقة» والبشير البورصالي من نهج السـواحل وهو أصغرهم سنّا .

السّهر والشيشـة والسّجائر والمواضيع المختلفـة رفعت الكلفة بينهم وبدأ كل واحـد منهم يرتبط بالآخـر ويفتقده أن تغيّب عن مجلسه.

راح البورصـالي في انتظار البقيـة وهو يفـرك يديـه يبعث فيهما الدفء، وشيئـا فشيئا أفلت منـه البُرنس حتى سقط على الكرسي وراءه وسرح مع دور للسيد درويش الذي كـانت تردده إسطوانة القهوة ..

ــ آه .. أنا عشقت وشفت غيري كثير عشق..
عمري آه .. عمري ما ذقت المر إلا في هواك

ولم يفق إلا على فرج وهو يجذب كرسيا بجانبه ويصفق:

ــ شيشة يا ولد الكحلة..

ــ جاك..

وبعد برهـة جاء ولد الكحلة وانحنى كالمارد أمام فـرج ومد له بالخرطوم الطويل وأخذ يحرّك الجمـر في المجمرة عندها صفق فرج وغنّى بصوت مسموع:

يا كـــحلـــــــة يا بنـــت عـــمي محـــلاك..
الله يـــــرضي سيـــــدي سعْـــــــد باباك..

وانتفض ولـد الكحلة ورمى بـالمقص وراح يطوّح رأسـه يمنة ويسرة..

غـــدويـــك نـــعـــرســـوا ــ آ ــ آ
والتـــكوى نـــهـــــــرســوا ــ آ ــ آ

وصخبت القهوة وكثر الضّحـك وخرجت كلمات الاستحسان مائعةـــ

ــ زيد يا كحلة زيد..

ويضيع عشق السيد درويش ومرارة هواه في مجون فرج ورقص ولد الكحلة...

ويرمي البورصالي طربوشه على الطاولة أمامه غاضبا:

ــ يكفي.. يكفي يا كحلة..

ويترنّح ولـد الكحلة ويبتعـد عن المكـان، ولا يهدأ البشير إلا عندما يدخل الباهي وحبيب الضحاك ويجلسان..

ويضحك الباهي:

ــ أغضبك ولد الكحلة؟..

ــ هذا الاسود لا يكف عن تحريك رأسه

ثم وهو ينظر إلى فرج في حنق:

ــ وأنت؟؟ دوما تتصرف كالاطفال..

وينتفض واقفـا ويده تبحث وراءه عن بـرنسه ويمسكـه فرج ولا يتركه يخرج:

ــ إلى أين يا رجل؟؟

ــ إلى جهنم..

ويشدّ الباهي ذراعه:

ــ اجلس ولا تتصرف كالأطفال أنت الآخر..

ويجلس ويعود ينظر الى فرج...
ــ خسارة فيك دور «أنا عشقت»..
ويضحك فرج بقوّة:
ــ كرهت العشق والعشاق مذعرفتك يا بورصالي..
ــ لأنك أحمق..
ـــ لأنني عاقل ولأن العشق بات مظلوما ومسكينا وسوف تقضي عليه أنت وأمثالك، زمان السيد درويش غير زماننا يا رجل...
ـــ لن يقضي على العشق غير الغايات والمصالح والخداع والزّيف، في هذا الزمن زمن تفتح المرأة على الحرية. هذه الحرية التي عصفت وتعصف بكل توازن عاطفي حسّي عائلي ومجتمعي..

ونظر اليه فرج مبهورا وهو يسوّي شنبه الأسود الغزير
ـــ انرْنا، أنرنا يا أستاذ اني احسد تلاميذك على هذا الفهم، هذا العلم.

وقال أنور للضحاك:
ــ إنك تزيد آلام البورصالي من حيث لا تشعر يا ضحاك..
ــ لا يا أنور أنا أسْرُد وَاقعا معيشا وملموسا. البورصالي كغيره من الناس، بعض النّاس. بعضهم ممن يحترم نفسه ويسمو بها عن كل الرّذائل لأنه ببساطة أعطى قيمة لوجوده لحياته.
ــ أراك تبالغ
ــ أبدا يا أنور..
ــ وهل يرتبط وجودك بوجود غيرك؟؟
وتنهد البورصالي وحكّ ذقنه بأصابعه الرّفيعة
ـــ إنه تواصل وترابط وايمان. إنه مزيج مخيف من الرهبة والرغبة والإقتناع. إنه صراع داخلي قائم عندك تحرّكه أنسجة

مجهولة في خلاياك فتتوتر و تفرح وتحزن وتغضب وترضى، وتبكي أحيانا..

قال فرج:

ــ لا أفهمكما أستاذ ومدرس، وأنا أنا «تارزي» لا أحسن إلاّ استعمال المقص لذلك ما تقولانه جميل إلا أني لم أشعر به ولا أريد أيضا أن أضيع في متاهاته، نظرتي للنساء والعشق واضحة إنهن كالقماش. مقص وإبرة وأصنع كسائي، أفصّلهنّ حسب مزاجي.

وقال أنور وهو يضع يده في يد فرج:

ـ أنا مثلك أحب الحب وأشتريه، فأموال الباهي كثيرة ولا أريد أن أضيّع حياتي وراء الفلسة. بالمال تشتري كل شيء هذه الأيام حتى المرأة. إن كان المال حتفها فهي تذهب إلى حتفها بدون تفكير!

وضرب البورصالي كتف أنور الباهي في سخرية:

ــ تعجبني...

ثم قام متأففا وترك القهوة والسوق وفي رأسه تتردد كلمات المقطع الثاني لدور السيد درويش

يا ما شرد وكنت أقول صبرك عليه.
قلبـــــي معادش يرق بعـــــد اللي حصـــــــل
غيرك هويت..
غيرك هويت...

لم يكد مرتضى يلتقي بمحمد حتى تشبث به وانتحى به قهوة جانبية صغيرة قرب حمام باب العسل:

ـ سبعة أشهر يا رجل!! أين اختفيت طوال هذه المدة؟؟!

ـ رجعت إلى العالية..

ـ والعاصمة..؟؟!!

ـ هدّتني معاليم الكراء.. ثم..

ونكس محمّد رأسه إلى الأرض وسكت..

ـ ثم ماذا تكلم..؟!!

ـ زوجتي..

ـ ما بها؟؟

ـ أصرت على أن نعود للعالية وخرجت من حياتي ومن بيتي ومن العالية بذكاء.

ـ ماذا.. ماذا.. ماذا؟؟

عندما عدنا إلى أهلها خيرتني بين أمرين إثنين: أن تخرج للعمل أو أن نفترق..

ـ وماذا اخترت؟؟

ـــ بعد أخذ ورد تـركتها تعمل بأحد البيـوت فأنت تعرف أن هنـاك في العاليـة مـازال بعض الأجـانب. دخلت تعمل في بيت من هذه البيوت الكبيرة الأجنبية

ـ معمّري؟؟

ـ معمري!!

ـ ثم ماذا؟؟

ـــ وفّرت لي الكثير، الخبـز. الكساء، السجـائر والخمر أيضـا، وشيئا فشيئا بدأت تتسلّل إلى خارج البيت..

ـ كيف؟؟!!

ـــ لم يعد البيت يعجبها، ولكني تمسكت به لأني وجـدت فيه كل شيء إلا هي طبعـا، أصبحت لا أمانع عنـدما تبيت خـارجه بحجة العمل أيضا،

فهؤلاء الأجنـاس يقيمون دوما السّهرات وحفـلات العشاء في بيوتهم.

ـ ثم ماذا؟؟

ـ خرجت يوما ولم تعد. ذهبت. ذهبت مع «سيّدها»

ـ زوجتك..؟؟

ـــ زوجتي...! تزوجنا منذ سنـوات على العرف، لم ننجب مع بعضنا لذلك وجدت نفسها خفيفة الحمل وحرة..

ـ وأنت ماذا فعلت بعد ذلك..؟؟

ـ لبست سروالي..

وفتح مرتضى فمه من الدهشة..

ـ ماذا قلت؟؟؟

ـ قلت لك لبست سروالي الذي نزعته لي زوجتي..

ثم متهكّما:

ـــ من قال أن الرجـولة في لبس السروال؟ أن تلبس سروالا لا يعني شيئا أنا مثلا لست رجلا.. أقولها...

ودفع يده بين فخذيه..

ـــ وهذا بوّال..

وارتمى في زحمة نهج باب العسل وغاب عن الأنظار.

حركة غريبة عند مـدخل زنقة السيدة سمية جعلت علي يشدّ بقوّة على كتف رفيقه:

ــ عبد الحميد؟؟!! أنظر ماذا هناك؟؟

ــ أين؟؟!

ــ في الزنقة..

انتبه عبد الحميـد واندفع يجري إلى الدّاخل... ليستجلي الخبر وبنفس السرعة عاد ليقول لعلي

ــ سعاد ماتت..

ــ ماتت؟؟!!

وأسرع علي إلى البيت وهو يضع أصابعه داخل أذنيه

ــ أمّي.. جودة.. آمال.. نورة.. أين أنتن؟؟ أين؟؟

ثم وهو يحكي مع نفسه..

ـ إنهن عندها في بيت الميتة..
ميتة؟؟ موت؟؟!!
ما الموت؟؟..
ما الموت؟؟..
وهل يموت كل الناس. وكيف وإلى أين يذهبون؟ إلى أين؟؟ وبعد الموت هل يعودون؟؟
وفرّ من الدّار إلى الشّارع وأراد أن يبحث عن عبد الحميد لكنه عدل عن فكرته وسط الزّحام والوجوه الكثيرة ووجد نفسه يمشي ويمشي يبتعد عن الناس والضوضاء.

بعد الظهر وهو يجلس في مكانه في القسم سأله عبد الحميد هامسًا:
ـ أين اختفيت؟؟
ـ لا أدري..

ثم وهو ينظر إلى رفيقه في ذهول..

ـ أشعر بوجع كبير في رأسي..
لم يكد الأستاذ يأخذ مكانه حتى سمع ضربا متواصلا داخل الفصل.
عقدت الحيرة لسانه وظل ينظر أمامه والضرب على الطاولة يرتفع وضج التلاميذ..
ـ هدوءا..
واتجه نحو علي المضطرب الذي كان يمعن في الضرب على طاولته ما بك يا علي؟؟ ما بك يا ابني؟؟!!

وتساقطت الدموع غزيرة واحتقن الوجه وبلّله العرق..
وقال أحد التلاميذ:

ـــ في زقاقنا اليوم يـا سيدي ماتت لنا جـارة صغيرة وأنا رأيت علي وهو يهرب من الصّراخ ويترك الزقاق..

نظر عبد الحميد إلى توفيق في امتنان وقال:
ــــ أجل يـا سيـدي لاشكّ أنّ مـوت جـارتنـا الصغيرة وتّـر اعصابه.
وجـد علي نفسـه في البيت وقـد خفّ وجع رأسـه فتح عينيـه وعندما تعوّد النور إبتسم:
ــ عبد الحميد أنت هنا؟؟
ــ الهادي وتوفيق أيضا!!

أغمضهما من جديد عندما سمع صوت توفيق
ــ علي هل أنت بخير؟؟
ثم وهو يقترب منه..
ــ قل انك بخير..
ــ أشكرك..
ــ تشكرني؟؟

وبنظرات قلقة تصاخب فيهما الموج وتضـارب بين زرقة حزينة ورمادي متكدّر:
ــ علي لماذا تكرهني؟؟

انحسر الـدم عن وجه علي فتـوفيق أصـاب الهدف ومع ذلك قال مستنكرا:
ــ أنا أكرهك؟؟!!
ــ أنت تكرهني..
وتدخل عبد الحميد..
ــ كيف تفكر بهذا يا توفيق؟؟

وتصلّب وجه توفيق وازداد بياضا..

ـ اسكت يـا عبد الحميد علي أقدر مني ومنك في الـدفاع عن نفسه..

ثم وهو يوجه كلامه إلى علي:

ــ كنـا أطفالا وربما صـدرت عني أشياء جعلتك تكـرهني واليوم ألا نكبر يا علي؟؟

ـ ومتى كنت صغيرا..؟؟

ـ أنت وعبد الحميد والهادي وأنا لنا نفس السن.

ـ ومع ذلك تظلّ كبيرا..

ونظر اليه توفيق في حيرة..

ـ لا أفهمك..

ــــ من الأحسن أن لا تفهمني ومع ذلك أشكـرك على هـذه الزيـارة أقولها بإخلاص، بإخـلاص يا توفيق من يـدري قد نلتقي يوما..

ـ يجب أن نلتقي يا علي.. يجب..

وضع فرج خـرطوم الشيشــة جانبا وهـو يسند ظهـره إلى جدار القهوة وقال لأنور:

ــ لا أريد أن اعود إلى زنقة السيدة سمية هذه الليلة

ــ لماذا؟؟

ــ أكره الموت وأخافـه، الإبنة الوحيـدة لحسن قربـوج توفيت هذا الصباح..

ــ الله أكبر..

ثم وهو يمد بالخرطوم إلى أنور ويبتسم

ــ أنظر.. أنظر إلى هذا الرجل الذي يتلكأ عند الباب.

وضحك أنور:

ــ بَراني لا يعرف قهوة السوق

ذلك البراني كـان محمد صـديق مـرتضى رمتـه الشوارع بعـد تعب التجـوال في ذلك الليل إلى السـوق ثم إلى القهـوة. جلس وطلب فنجانا لم يهتم بـه «ولد الكحلة» ورمى له بـالفنجان الذي ما كـاد يضعه بين شفتيـه حتى إنتبه إلى امـرأة بدينـة ترفـع الحافا كانت تغطيّ بـه وجهها تاركـة العينين تجولان بوقاحة في الـزّبائن تقف بباب القهـوة ورأى أحدهم وقـد كان يضحك عند دخـوله يقفز إلى جانبها مسلما ويبتعد بها عن الأنظار..

قال لها أنور:

ــ أهلا.. أهلا يا «معلمة».

وقرصته في خده

ــ أين أنت يا رجل؟؟

ــ موجود كما ترين.

ــ ألم يعد يعجبك بيتي؟؟

ــ كيف ما دمت أدفع هنا أو هناك؟؟

ــ عندي الجديد..

ــ الجديد؟؟! .. إذن سأكون الليلة عندك...

ــ وعد؟؟!

ــ وعد حر..

وتركته وسلمت وغيّبتها أزقة الحلفاوين..

عـاد أنور مسرعـا إلى فرج الـذي كـان يقلب المكان بنظـرات فارغة:

ــ أنت لا تريـد أن تعود إلى زنقة السيـدة سمية هـذه الليلة أليس كذلك؟؟

ــ قال فرج متأففا

ــ لا أريد.. لا أريد..

ـــ عندي لك مفاجأة سارة..
ـــ أغثني بها..
اقترب..

وهمس في أذنه ببضعة كلمات..
ـــ ها .. هل أنت مستعد؟؟
ـــ وألف مستعد، أغيّر المكان والطعم.
ـــ إذن هيّا بنا بعد ربع ساعة من الان نكون في نهج الجرابة.

نهج الجرابـة مجموعـة بيـوت متـلاصقة يقع بين سـوق الحوت المسمى بحـارة اليهود أو الحفصيـة. له عـدة مداخل: الحفصيـة، باب قـرطاجنّـة، سوق سيدي محرز نهج البـاشا، بطحـاء رمضان باي، الحواري..

تواجه هذه البيـوت بعضها ويفصل بعضها الأزقة. تتربع على عرش كل بيت امرأة يلتجىء إليها الشارد والعابث والمحموم.

قالت وهي تفتح له الباب:

ــ مُدّة طويلة يا أنور..

ــ ولكني عدت إليك ولست وحدي

صفّرت في ز هوّ...

ــ أهلا.. أهلا.. تفضلا..

ولكز أنور فرج في جنبه ودخلا..

ولم يكن أنـور و فـرج أول من دخـلا بيت زينـوبـة في تلك الليلة. كان هنـاك غيرهما. فزينوبة تحرص على ألا تفقـد زوار بيتها تخاف أن يشرد احدهم إلى بيت مجاور..

فـالأوساط كل الأوسـاط تتزاحم لا فـرق بين كبير وصغير بين أمير وحقير. فكما يزاحم الوزير الوزير يزاحم الحمّال الحمّال.

وتزاحم زَيْنُوبة منّوبية.

مسالـك قهوة السـوق عديدة سـاعة يـرخي الليل ستـارته في تلك البقعة الحيّة النابضة المشعة.

في المرة الاولى التي دخل فيهـا محمّد قهـوة السـوق كان بـرّاني مضحكا، وعندما عرف مسـالكها دبّ هو الآخر في تلك الدروب وأصبح يعرف عدة أسوار وأماكن ومخورات..

وعـرف بيت زينوبـة ودخل أيضـا، ودوما كـان يثير الضحك عليه.

قالت له إحداهن وهي تأخذ منه طربوشه في المرة الأولى:

ــ إسترح..

وعندما طالت إستراحته ضحكت وقالت له مستفزّة.

ــ أنت خجول..

نظر إلى عينيهـا النهمتين وجسدهـا الممتلىء وأحس أنه يمشي

على وجهه في جنازته وأنه سيدفن حيا وفي قبره وقبل أن تخرج أنفاسه سيصرخ يصرخ فزعا. قطرات من العرق البارد ساحت فوق وجهه عندما جلست بجانبه والتصقت به. لهث متعبا

إبتعدي..

إلتصقت به أكثر:

ـ قلت لك ابتعدي..

ـ لماذا أنت هنا إذن؟؟

ولوت شفتيها في تقزز ثم وهي تنظر اليه نظرة جانبية

ـ أتريد أن تلعب الورق؟؟

قال محتدا:

ـ الورق؟؟ ! لعبة سخيفة..

وأرتمى فوقها وراح يهذي:

ـ قولي قولي ماذا تجدين؟؟ بوّال «هوّ مجرد بوال!! أليس كذلك؟؟!!

وساحت دموعه فوق عنقها..

همست وهي تشده إليها أكثر..

ـ أنت قوي، قوي..

فـرج إستهواه المسلك الآخـر وغفل عن زنقـة السيدة سميـة، وفي الزنقة في بيت السيدة أم عبد الحميد، حزن ودموع .

لم يعـد عبد الحميـد يـرى أمّه إلا بـاكيـة كانت تشغل نفسهـا بصنع الكبوس وتبكي وتعطيـه كل ما تكسب لم تعـد تهتم بنفسها ولا بزينتها وضمر عودها ونشف.

ذات يوم قرر عبد الحميـد أن يدخل على نفسها البهجة. وراح يبحث عن مصدرها.

كان يوم عطلة آخر الأسبوع وقهوة السوق حافلة بروادها:

قال البورصالي للضحّاك:

ــ أين أنت يا رجل؟؟

ودفعه أنور برفق:

ـ البيت والزوجة، أم؟؟
وضحك فرج وضرب على الطاولة أمامه..
ـ لا يـا أنور الضحاك من هواة الصنف الواحـد انه يأكل منه ولا يملّ:
ـ وصفق بيده:
ـ أربعة قهوة ياكحلة..

وجاءت القهوة،
وقال الضحاك واصابعه تشد بقوة على فنجانه
ـــ إني وإن كنت أكـره لغـة الحواري عن الأكل والأصنـاف، أقـول لكم: في بيتـي مشكلـة تتعقـد يـومـا بعـد يـوم وانـدفع البورصالي:
ـ ماذا .. ماذا؟؟
ـــ زوجتي تـريـد أن تستقل بنفسهـا.. طلبت منها أن ننتظـر قليـلا، فأنا من نـاحية لا أريـد أن أترك بيت والـدي ومن ناحيـة أخرى وأنا كبير اخوتي عليّ برعايته، أي والدي.
وقال له فرج:
ـ واخوتك؟؟
ـــ حمّادي يقطن ببـات العسل وحبيبـة نهج البصيلي وهي، زوجتي المصونة تريد أن نتقاسم العنـاية بوالدي، لو كانت زوجته حيّة لما واجهت مثل هذا المشكل..

وقال أنور متحمسا..
ـــ ألا تـرى أنها على حق؟؟؟ أختـك هي الأولى بـالعنـايـة بوالدك ..
ـ أنا لست ضد المبدأ ولكنـي ضد السلوك تريد ني أن أختار بينها وبين والدي..
وتنهد البورصالي:

ــ إنها الحرية..وانفلت فرج ضاحكا..

ــ الحرية؟؟

ـــ نعم الحرية هذا الخطر الذي داهمنا جميعا . الحريّة جميلة، إلا أن جمالها الأخّاذ شوّهته المفاهيم الخاطئة والغالطة.

قال الضحاك حزينا:

أجل الحرية، حرية المرأة سبب من أسباب تمرد زوجتي عليّ انها تعتكف ببيت والدها منذ مدّة. تزوجتها واحترمتها عاملتها كإنسانة، كندٍّ لأني وهذا مبدئي أريد دوما أن يكون نـدّي واقفا حتى ولو كان امرأة. لا يوجد أي فرق بين الرّجل والمرأة سوى اختلاف الجنس وهذا لا يشكل في نظري عقبة أنا لا أشعر بأية ميزة على زوجتي أنا عقل وهي عقل، أنا روح وهي روح، أما الاجساد فالرغبات التي تجتاحها مشتركة وطبيعية ولا فرق بين جنس رجل وجنس إمرأة ومع ذلك تريد أن تضع أمام هذه الأشياء الطبيعيّة والعادية عراقيل وشروط..

قال له أنور الباهي:

ــ استعمل معها القوة...

ـــ لا.. لا... في بيتي وفي حياتي الخاصّة لا أريد أن أقوم بدور المربّي ولا بدور الشرطي ولا بدور الحاكم.

قال فرج في حيرة..

ـــ لا أفهمك، لذلك أريد أن أظل دوما تارزي أستعمل المقص..

ــ سوف تفهمني حتما يا فرج:

ــ في حياتي أكره الأخذ والرد والكر والفرّ والمدّ والجزر. أراجع نفسي دوما لأقول كلمة واحدة وأحسم مواقفي حتى لا أظل أتأرجح وأختار الطريق التي لا توجد فيها المسالك الفرعية حتى لا أتردد بينها. لذلك سأتشبث بموقفي أنا الآخر ليس عندًا ولا تصلّبا ولا خوفا من أن تستغلني مستقبلا ولكن حتى لا أتحطم، أنا بنيت نفسي من الداخل بناية صعبة ومتينة كي لا أحتاج إلى

تـرميمها ولا إلى اعـادة تصميمها مـن جديـد أنا اخترت هيكلـة بنايتي ولا رجعة في اختياري، رغم أنف زوجتي والحريّة.

وانفلت البورصالي، غاضبا:

طـز في حـرّيـة المرأة لأن الـرجـل سيظل دومـاً هـو الأقـوى. والـذكية مـن استكانت لهذه القـوة وتصـدت لها بعقلهـا عندهـا ستهزم الرجل. فالرجل واحد لا يتغير. المتعلم والجاهل يرفض أن تشاركه المرأة امتيازاته وأولى هـذه الإمتيازات تسليط الرأي، امرأة الحريـة منـافقـة تـريــد أن تحصل على كل شيء في وقت واحـد، الحرية ورجل تسيره.

وأراد فرج أن يقول شيئا ولكنه سمع صوتا يناديه..

ــ عمّي فرج.. عمّي فرج..

وأنتبه فرج إلى الصـوت وإلى الشاب الواقف أمـام باب القهوة وأسرع نحوه

ــ عبد الحميد؟؟ كيف حالك؟؟

ــ أنا .. أنا بخير..

ومرة واحدة

ــ أمي تسأل عنك..

شدّ فرج على كتف عبد الحميد وخرج به من السوق:

ــ عبد الحميد!! أريدك أن تفهمني..

وسكت طويلا:

ــ أنت لم تعد صغيراً أعرف أنك ستفهمني..

وقال عبد الحميد بلهفة..

ــ سوف أفهمك.. سوف أفهمك..

ـ إذن. لا تقل للسيدة أنك رأيتني..

أحسّ عبد الحميد بقبضة قوية تخنقه وبموجة من الحرارة اصطبغ منها وجهه حمرة شديدة جعلته يندفع من أمام الرجل ويأخذه نهج صاحب الطابع ويجري.. يجري..

ـ طحّان.. طحّان يا عبد الحميد...

كثير على المرأة أن تلد وتحكم!!

لكل وظيفته. الحاكم للحكم، والمربي للتربية أما عندما يتدخّل الحاكم في شؤون المربي ويتحول المربي إلى حاكم، حتماً تحصل الكارثة.

ومع ذلك يبدو أنه في الزمن الرديء الكل، يعشق الحكم!!!

تخلّى قاسم اللومي عن وظيفة الحكم في بيته لعويشة، وتمسكت المرأة بوظيفة الرجل بكل قوتها.

لم يكن قاسم ضعيفاً ولا مشاكساً، كان رجلا عادياً قبل أن يفقد عمله كحاجب بوزارة المالية، رفض أن يكون تابعاً قوّاداً فرفضوه ووجد نفسه في الشارع، وعندما عاد إلى البيت لم يزعجه أن تتربع عويشة على عرشه حاكمة بقدر ما أزعجه تبدل المرأة السريع وتقلب ميزاجها.

وتمزق في البحث عن العمل ليعود إلى سلطته في البيت..

ولكن!!

ظلّ يتلاشى من «سقيفـة».. إلى «دريبة» إلى «صـاباط» يخفي ضعفـه وفشلـه وفلســه وحنقـه. ويختفي داخل تـونـس، تـونس الدفـء. دفـء الدرايب والسقايف والصـاباطات، ولا يعرف هذا الدفـء إلا من ولد فيه!

والتجأت عويشـة إلى والدتها وكان عنـده الكثير. الكثير الذي جعلها تكبر وتكبر وتقلص قاسم، صَغُرَ وصغرت نفسه.

«لا أمـان للـدنيـا والمال والنسـاء»! بهذه الفكـرة إتبع قـاسم طريق الحانات كلما توفر له بعـض المال. كان يدخل الحانة حزيناً ليخرج منهـا وقد مضى الهزيع الأول من الليل متثاقلاتخفّـه طرب مجنون يتعثـر في الشوارع والأنهج والأزقـة وفي بيته في زنقـة السيدة سمية يجد عويشة ــ متحفزة..

ــ سكران.. سكران.. كالعادة..

ــ آوش.. آوش.. أريد أن أنام..

ولا تتركه ينام ولا الأجوار..

وتمرّ الأيام وتنقضي الأشهر ويتخلّى العام عن مكـانه لعام آخر وآخر.

وذات يوم قـامت عويشة من نـومها وراحت تشعل الكـانون والتفتت حولها منادية.

ــ سالمة، يا سالمة لماذا تأخرت في النوم هذا الصباح؟

وانتظرت وقتا ليس بالقصير ثم عادت تناديها:

ــ سالمة، يا سالمة..

وخرجت ليلى من البيت مسرعة:

ــ أمي سالمة ليست في فراشها..

ــ ماذا؟؟! أين هي؟؟

واندفعت داخل البيت تفتشـه. فتّشت عنها هنـا وهناك حتى بيت الراحة. ثم وبِصوت خائف متقطع:

ــ قاسم يا قاسم..

أجابها وهو يدير وجه إلى الحائط..

ــ ماذا هناك؟؟

وفتحت عويشة باب غرفته على مصراعيه..

ــ لم نجد سالمة..

وقفز من فوق فراشه إلى الأرض..

ــ ماذا؟؟!

وراح حافياً يفتح أبواب البيوت ويغلقها بشدّة..

ــ أين ذهبت.. أين ذهبت؟؟

ثم وهو يلتفت إلى أولاده..

ــ أين أختكم يا وْلَاْدْ الكلب..؟؟

وتخلّصت ليلى من خوفها وقالت:

ــ أنتم السّبب أنت وأمي..

وأراد قاسم أن يصفع ليلى ولكنه ثاب إلى نفسه وقال لها بهدوء مفتعل..

ــ أنت تعرفين أين ذهبت سالمة أليس كذلك؟؟

ــ لا يا أبي.. لا.. ولكني في المدة الأخيرة كنت أراها دوماً تبكي..

ــ ألا تعرفين السبب؟؟

ــ لا..

خرج قاسم اللومي من البيت ووراءه عويشة منكمشة مرعوبة وعندما وصلت نهج البصيلي ارتمت في الزقاق الأول تخبط على أحد الأبواب. ولمّا فتح الباب اندفعت إلى الداخل ووراءها قاسم.

ــ صباح الخير يا أبي..

قال الشيخ في حيرة..

ــ ماذا هناك؟؟

ــ سالمة أين سالمة..؟؟

ــ سالمة.. ؟؟ لم أرها..

واندفعت عويشة إلى الداخل واحتمت بأمها..

ــ سالمة يا نانا سالمة ليست في البيت..

ــ سالمة..؟؟!

ونظرت المرأة العجوز إلى ابنتها مهمومة..

ــ أين تكون قد ذهبت؟!!

ثم التفتت إلى زوجها:

ــ لماذا لا تذهب إلى أخوالها عامر والأمجد والمنصف وتسأل عنها يا حميدة..

وخرج حميدة وقاسم اللومي ووراءهما خرجت عويشة عادت إلى البيت تفتش عن سالمة..

وانتظرت، انتظرت حتى المساء وعاد قاسم تعباً ولما رأته بمفرده انتحبت. ودخل الليل وسقطت المرأة القوية في غيبوبة وظلت تهذي حتى الصباح وبعدها صرخت..

أفاق سكّان زنقة السيدة سمية على صراخ عويشة، اجتمعوا حولها وانتشر الخبر، الكل يسأل ولا يجد لسؤاله جوابا:

ــ ترى أين؟ أين سالمة..؟؟

انتبه عبد الحميد على يد أمه تجذبه إليها وتخرج به من بيت عويشة. عندما أغلقت باب المنزل وراءهما ارتمت في حضنه

باكية:

ولم يفهم عبد الحميد سبب بكائها قال لها وهو يرفع وجهها بِيَد مرتعشة:

ــ أمي، أمي أنا حاولت معه..

ولم تسمعه. قالت له من خلال دموعها..

ــ سامحني يا بني..

ــ أمي أنت.. أنت..

ــ دعك مني الآن..

ودفعت يدها داخل صدرها ومدّت له بمفتاح صغير..

ــ ماهذا يا أمي؟؟

ونظرت إليه تأمّلته، تأمّلت استدارة وجهه واكتشفت شعيرات سوداء بدأت تزحف إلى ذلك الوجه الجميل.

ــ أنت كبرت يا عبد الحميد وهذا مفتاح البيت وأنت رجل البيت الآن إن شئت حبستني داخله.

واحتضنها عبد الحميد وقبّل شعرها الذي زحف إليه بياض الأعوام.

ــ لا يا أمي لا. أنت سيدة البيت وسيّدتي وأمي..

جلست بجانبه تحرّك أصابعها بعصبية قال لها متوتّراً هو الآخر..

ـ مابك يا سالمة؟؟

ـ خائفة.. خائفة يا خالد..

نظر إلى وجهها مباشرة.

ـ وهل هذه المرة الأولى التي تأتي فيها إلى بيتي؟؟

استاءت من كلماته ونظرت إلى الأرض وبعد برهة قامت واستوت أمامه.

ـ أنت تغيّرت يا خالد إني لم أعد أعرفك غيّرتك الجامعة والبنات المثقفات. أين خالد التلميذ وهو يتمنّى أن يجتاز عقبة البكلوريا؟؟!

تأملته مليا وأحست بموجة من الدموع تفرّ من عينيها. بينما ظلّ هو ساكتاً.

ـ أربع سنوات يا خالد أعطيت فيها كل شيء.

ـ وأنا أيضاً يا سالمة أعطيتك. أعطيتك الكثير..

ـ أنت رجل..

ضحك في استهزاء:

ـ وما الفرق؟؟

ـ أنا.. أنا امرأة. ورائي.. أبي.. أمي وورائي مجتمع بأسره..

شدّ ذقنها إلى فوق وقال لها بلهجة قوية:

ـ عرفتك وحدك ما دخل هؤلاء في علاقتنا؟؟

ـ أصبحت أخافهم بعدما تورطتُ..

ـ أرجوك لا تتكلمي معي وكأنك ضحيّة..

ثم مدّ يده إلى جيب سترته وأخرج منها سجارة وأشعلها ونفث دخانها بقوة..

ـ أنا الذي كان يجب عليك أن تخافينه وتحذرينه.

ـ أنت ؟؟؟

وضعت يدها على فمها مندهشة.

ـ أنت كنت..؟؟

ـ كنت ومازلت ومع ذلك، أنا مرآة المجتمع التي عكست صورتك. أول صورة لك ظهرت في مرآتي..

ـ لا أفهمك.. ولكنك أخذت الكثير..

ـ وكان لك مثله..

ـ لن تحاسب على ما أعطيت..

ـ كنت مقتنعاً. وأنت هل كنت مقتنعة..؟؟

ـ طال انتظاري..

ـ كان عطاؤك بدافع الغاية؟؟

ـ عطاء المرأة مهما كانت دوافعه يظل رهينة..

ـ رهينة ماذا؟ رهينة كذبة اسمها «عقد زواج»، أمام المجتمع هل هذا ما تريدين..؟؟ مسكين المجتمع. ولكن ما أغباه المجتمع. كم شرب كؤوساً ملونة: على صحتك. و«انشلّ فَرْحتِك» تزويراً وتمويهاً وتسويفاً وكذباً وخداعاً..

وأشعل سجارة ثانية..

ـ مازال أمامي الكثير.. الكثير..

ـ وأنا ؟؟

ـ اِنتظريني..

ـ هل كنت انتظرت أنت أمس وقبل الأمس والسنة الفارطة؟؟

ـ لم أفتك منك شيئاً..

وصدمتها عبارته ووجدت نفسها تبتعد حتى باب البيت ثم تعود حيث يقف..

ـ أسكت أسكت أرجوك. لا تقل شيئاً آخر لا تقل شيئاً آخر.

وانهمرت دموعها وراحت تنشج..

اقترب منها..

ـ ماذا!! ماذا أصابك؟؟ سوف يستمعونك في الداخل وستصبح كارثة..

نظرت إليه ببلاهة..

ـ أإلى هذا الحدّ تخاف أنت الآخر؟؟

أنت تخاف..؟؟ أو تعتقد أني أقبل أن أحتمي بخائف؟ ما

أبشعك في مرآتي أنت أيضاً، سوف تظلّ نقيا طاهراً في نظر المجتمع أليس كذلك؟؟ وسوف يشرب المجتمع كؤوساً ملونة على شرفك يا نظيف ولكن؟!!

وعَضّت على شفتيها وانهمرت دموعها مجدداً غزيرة..

ـ ومع ذلك لا تخف.. لا تخف..

وانسحبت من أمامه وضاعت في الظلمة..

سنـة جـديدة لم تمحـو من الأذهـان مـا علق بها من أحـداث مـؤلمة. ومع ذلك الحياة تستمـر في الحومـة في النهج في الزقـاق في البيت في المعهد. قال علي لِعبد الحميد وهما في ساحة المعهد.

ــ لا أدري لماذا أجد هذه السنة ثقيلة؟؟!

ــ إنها كسابقاتها..

ـــ أتعس من سابقـاتها الـزنقـة مـوحشة والبيت يكثـر فيـه الشجار هذه الأيام..

وضحك عبد الحميد:

ــ من؟ أنت وعمي مرتضى!!

ــ عمك مرتضى يقوم بحملـة هجومية علينا جميعاً، لو لا أمي وسِعَـة صـدرهـا وحِلْمهـا لأصبح البيت جحيماً لا يطـاق حتى المعهد بات هو الآخر...

وقاطعه عبد الحميد:

ــ لا تقل جحيماً أيضاً..

ـ الديك الرومي أتعبني..؟؟

ـ من أستاذ الفلسفة؟ أنت أيضاً يا علي أنت الآخر متعب..

ـ أنا..؟؟

ـ أنت!! ألا تكف عن عنادك؟؟ دعه يقول ما يشاء..

ـ ما يشاء..؟؟ ما شاء الله!!

ـ نحن نذهب للمدرسة لنتعلم لا لنناقش أو لنحاجج.

ـ طريقته في التدريس لا تعجبني

ـ آ.. آ فهمت.. أما طريقتها هي في التدريس تعجبك. أليس كذلك؟؟

وارتعشت رموش علي وسحب نفساً طويلاً.

ـ من؟؟

ـ أستاذة العربية وهل هناك غيرها؟ إنها توليك عناية خاصة وأنت تغيب بعيداً في حصتها.

ـ أحقا ما تقول يا عبد الحميد؟؟

ـ وتسرح بخيالك أيضاً..

ـ ثم ماذا؟؟ ثم ماذا يا عبد الحميد..؟؟

ـ لا شيىء. بعد ساعات درسها تفيق وتصبح عادياً تستيقظ.. أجل تستيقظ.

ـ يقظة مخيفة يا عبد الحميد.. مخيفة..

ـ ماذا؟؟!

ونظر عبد الحميد الى رفيقه ورآى اضطراب اللون الكهرماني في العينين الكستنائيتين.

وحمرة باهتة تطارد صفرة دائمة ولحية خفيفة صفراء ترسم وجهاً مستطيلاً بتقاطيع مستقيمة مرتجفة.

وقال له:

ـ لا.. لا يا علي استيقظ وواجه الخوف انها أكبر منك.

هاجت نفسه وهو يتذكر قعدات قهوة السوق تذكر الحبيب الضحاك ذلك الرجل المستقيم الذي بنى نفسه من الداخل على أسس صحيحة. آخر مرة رآه فيها كانت في أواخر شهر سبتمبر.

ـ قال الضحاك لفرج:

ـ في غرة أكتوبر من هذه السنة أكون في الجنوب في «قابس».

ـ نقلوك إلى هناك؟؟

ـ مهنة، سآخذ والدي معي لن أتركه لغيري حتى أختي.

ولم يشأ أن يسأله عن زوجته...

أما البورصالي العاشق الولهان أصبح لا يدخل السوق إلا قليلاً، العلم أخذ كل وقته والجامعة أيضاً التي دخلها طالباً.

وضحك فرج..

ـ تعب وكتب وفلسفة وجنون...

وهو داخل الأسواق المظلمة، ورطوبة الخريف تسري في

جسمـه ألحت عليـه من جـديد ذكـرى «السيـدة» طيفهـا لم يبرح مخيلتـه منذ مـدة. في تلك الليلـة ألغى مـوعده مع أنـور ليـذهب إليها.

عندمـا استقبلته أضواء نهج سيـدي بن عروس أسرع الخطى، وترك سـاحة بـاب سويقـة ودلف من نهج «رحيبة سيـد الجبالي»، فـالحدادين، فالتبـانين فنهج صـاحب الطابع فـالقنطـرة فحومـة السواحل فزنقة السيدة سمية ووجد نفسه يطرق الباب:

وجاءه صوت من الداخل:

ــ من.. من.؟؟

وفتُحِ الباب وواجه كل منهما الآخر:

ــ أنت؟؟! ماذا تريد؟؟

وقال فرج بتصميم لعبد الحميد:

ــ أين السيدة؟؟.

وسمع شهقة من الداخل:

ــ فرج؟؟!!

عندها توثب فرج للدخول..

فاعترضه عبد الحميد:

ــ إلى أين؟؟ هذا بيت وما هو بوكالة..

وارتفعت يد فرج إلى فوق لتصفح عبـد الحميد ولا يدري عبد الحميـد كيف أفلتت أمـه من ورائه وامتـدت يـدها لـوجـه فـرج وصفعته صفعة قوية مدوية ترنّح لها الرجل وابتعد..

استدار عبد الحميد على أعقابه ليجد أمه منفعلة مبهورة..

ــ لماذا؟؟ لماذ يا أمي..؟؟

ولاحت على ذلك الوجه الشاحب بسمة رضى..

ــ كنت أنتظر هذا اليوم يا عبد الحميد..

ــ ولكن؟؟

ــ أغلق الباب وراءك..

ــ لحظة يا أمي..

ــ إلى أين..؟؟

ــ إلى علي؟؟

ــ في هذه الساعة المتأخرة من الليل..

ــ إنه يسهر يذاكر..

وخرج وطرق الباب المواجه لبيته

ــ اِفتح يا علي افتح..

قال علي لعَبد الحميد مندهشاً وهو يراه أمامه واقفاً:

ــ أنت؟؟!

ــ ومن تريده أن يكون؟؟ أومازلت ساهراً؟؟

ــ أفكر في الغد وفي حصة الفلسفة ليتني لا أذهب إلى المعهد..

ــ هاوده، هاوده يا علي.

ــ ماذا تقول؟؟! أخرج ودعني وشأني.

وضحك عبد الحميد ضحك بقوة. إنه لا يتصور كيف استطاعت أن تصفع السيدة فرج وماهو الدافع الحقيقي لتلك الصفعة في الماضي كان فرج يضربه أمام عينيها ولا تتكلم..

وسأله علي في حيرة:

ـ ما يضحكك؟؟

ـ لا شيء. لا شيء. تصبح على خير يا علي..

ـ تصبح على خير..

ما إن وضع عبد الحميد رجله خارج الدار حتى سمع حشرجة بجانب الجدار. انحنى على الرجل المتكور وساعده على الوقوف ثم:

ـ عمّي قاسم!!؟

وشدّه إلى صدره

ـ هيّا. هيّا إلى بيتك..

ـ انتظر أريد أن أقول لك شيئاً مهماً..

ـ ماهو هذا الشيء يا عمي قاسم؟؟

كان الرجل مخموراً ويتكلم بصعوبة..

ـ سالمة. سأجد سالمة سأجدها.

ـ سوف تجدها يا عمي قاسم سوف تجدها.

ـ ولكن أين.. أين.. أين..؟؟!!

وبكى قاسم ولم يحتمل عبد الحميد بكاءه فراح ينادي بصوت عال:

ـ ليلى سامية.. افتحا لوالدكما الباب..

شدّ مرتضى رأسه متعباً وتنهّد:

ــ إنني مريض يا بوقمرة.

ثم وهو يجلس على الكرسي الذي مدّه بوقمرة من داخل الدكان.

ــ مريض.. مريض..

ــ كلنا مريض يا مرتضى..

ــ أمراضنا تتفاوت.

ــ ولكنها هي نفسها تقريباً.

وتنهّد مرتضى:

ــ هي نفسها مادمنا نعيش في نفس الزقاق ونفس الحومة ونفس البلد ونعاني من نفس المشاكل ونفس القضايا. إني لا أكاد ق أنني أصبحت غريباً في بلدي..

ــ يا رجل هوّن عليك.

ــ غربتي يا بوقمـرة بدأت من السوق، من داخل السوق الذي ارفضت عنـه الجاليـات الأخـرى وبعض الوجـوه المعـروفـة التي أتعامل معهـا باحترام رغم بعض المشاكل أحيانـاً، ودخلت وجوه أخرى متهـافتة وضعيفة. ضعيفـة وتافهـة تقبل الخسارة في سبيل تحطيمك ودوسك. السوق لم تعد سوقاً باتت غـابة لا تـرى فيها غير الوحوش الكاسرة تُحارب بالمخلب والنّاب...

ــ إصبر. الصبر يا مرتضى.

ــ فاضت كأس الصبر يا بوقمرة..

لم يبق غيري في السوق. الكل هرب منها تركها للذئاب تنهش في لحم بعضهـا الكل ذهب، العيّـاشي، النيّال، الشـواشي، محمـد البنزرتي حتى بن اِسماعيل كنت على الأقل أتعامل معـه هو الآخر لم يظهر منذ أكثر من أسبوع.

ــ لن أحدّثك عن السوق عندنا حتى لا أزيد همومك..

وأراد بوقمرة أن يغيّر مجرى الحديث..

ــ ألا تنسيك حال اللومي همومك أحياناً؟؟

ــ بل تزيدها عذاباً على عذاب..

وضحك من الألم وحرك رأسه في عصبية.

ــ لأنـه رفض لأنه قـال لا، أنت مثلي تعرف حكـايته. كـان نظيفاً شريفاً مسالماً، والنتيجة؟؟ النتيجة يا بوقمرة..؟؟

(دفع بوقمرة طربوشه إلى الخلف).

ــ لقي عكس ما أراد..

ــ هو الآن يتخبط في الوحل. الكل جـاء ضده. ضد نظـافته وشرفـه. الكل جـذبـه حسب رؤيتـه وميولـه وضعفـه الى الترعـة النجسة..

ـ قضاء ربك..

ـــ لا. لا يا بـوقمـرة. قضـاء الانسان قضـاء الإنسـان فقط. الإنسان الحاكم والقوي والظالم. قضـاءه الذي يقول: كن فيكون، كان ما كان يوم أطردته الإدارة من عمله. وكان ما كان يوم تربعت عويشة على عرش البيت وأصبحت تدير شـؤونه وكان ما كان يوم هـربت سالمة وتـركتـه كـومة من الخزي والعـار أين قضـاء ربك إذن..؟؟

آه ه ه، هـذا القضـاء هذا المشجب الـذي يعلق عليـه الجميع أخطاءهم تَعِبَ. تَعِبَ. من ظلم الجميع وتبليهم عليه!

ودفع الكرسي ونهض.

ـ إلى أين؟؟

ـ أشعر بالتعب والضعف في كامل جسمي..

ـ مرتضى!!؟

وفرك بوقمرة يديه محرجاً.

ـــ أنت تعـرف أنني أعيش وأختي بمفـردنا وعنـدي الكثـر والحمد لله..

ـ ليكون الله في عونك يا أخي.

ـ لي عندك رجاء..

ـ ماهو..؟؟

ـــ كل مـا يلـزم الأولاد مـن خضر وغـلال من عنـدي حتى يفرجها الله..

ـ ولكن؟؟

ـــ ولكن ماذا؟؟ هي سلفـة يا أخي حتى ينجـح علي، مازال أمامـه القليل ولا أريـدك أن تشغله عن دراستـه قال لي منـذ أيام

إنك أصبحت كثير الغضب مشاكسا دعه ينجح ولا تفسد عليه هذه السنة بالسوق ومشاكل السوق..

ـ سوف أفعل ما تريده يا بوقمرة..

ـ وَعْد..؟؟

ـ وَعْد!!

تمضي الأيام متثاقلة ومثقلة بالهموم تسوء معها أخلاق مرتضى.

مصير عائلته المجهول يجعله دائم التفكير ولا يهدأ باله ولا يستقر على حال أبداً.

تعب بنفسه، وبأفكاره وبجسده الذي يدب إليه المرض يوماً بعد يوم، والذي يوماً بعد يوم أيضاً لا يسلم من النهش رغم الوهن والتعب.

ذات يوم اشتدت عليه الحمّى داخل السوق وساحت دمعة على خده وراح يهذي:

«علي! هل تصل إلى لحومهم كما وصلوا إلى لحم والدك؟

هل تقدر على نهشهم؟؟ إنه زمن النهش زمن العض في الجلد واللحم والعظم حتى يكسر العظم ويُمضغ النخاع فتلتقي السن بالسنّ.. و«يقولون التلاقي: يوم يلتقي السن بالسن يكون

التلاقي. فبأيّ آلائي ربكما تكذبان ما ضرّ الإنسان إلا الإنسان. وما أكل الإنسان الا الإنسان. السنّ بالسنّ يلتقيان ولا يفترقان».

ويصرّ على أسنانه.

ومتعباً يجلس على كرسيه المعهـود في السوق الذي كانت تهب عليه نسمة ربيع رقيقة ومع ذلك أحس بـالبرد الشديد وأحس أنه يـرتجف وأن رأسه تـدور والسوق أيضـاً وأحس برغبـة شديـدة في القيء..... ولم يستطع مقـاومـة تلك الـرغبـة أراد أن ينهض فلم تستطع رجـلاه أن تحملـه، أحس أنــه أصبح في ثقل الفيل أشـار لواحد من أبناء السوق كان يوجد بالقرب منه:

ــ إبراهيم.. إبراهيم..

ــ ما بك يا رمتضى؟؟ مابك؟؟

ــ أريد.. أريد..

وتشد يده على فمه بقوة..

ــ أريد.. بيــ.. بيــ..

وكان ينظـر إلى بيت الراحة الموجـودة في السوق ولم يستطع أن يكمل كلامـه انكفأ على وجهه وانتشر القيء على سروالـه وحذائه عنـدها أسعفـه ابـراهيم بالماء وغسل لـه وجهـه ويديـه واجتمع بعضهم حوله ثم تفرقوا ووجـد نفسه يتكىء على ابراهيم ويتحرك بخطـوات بطيئة وهـو مشـدود إلى الرجل مـن وسطه. خـرج من السـوق إلى باب العسل. كـان ينظـر إلى النهج الحبيب كأنه يـراه لأول مرة، البيـوت المتلاصقة الأبـواب الصغيرة الجدران النظيفة. دكاكين العطارة والخضارة والفحامة. كانت أذناه تلتقط الكلمات اللطيفـة التي كانت تصـدر عن هذا أو ذاك أو تخرج من فم ولـد بريء؛

ــ لا بأْس عمي مرتضى؟.

ــ لا بأْس..

ــ إنشاء الله لا بأس.

وعندما وصل ابراهيم ومـرتضى إلى نهج الشرفاء، قال مرتضى في ضعف..

ـ إبراهيم أرجوك سامحني خذني إلى بوقمرة..

قفز الرجل من مكانه..

ـ مرتضى مابك؟؟ مابك؟؟

وقال ابراهيم..

ـ إنه مريض يا سي بوقمرة.

ساعد بوقمرة ابراهيم وشدّ مرتضى إليه:

ـ أنت محموم سآخذك إلى البيت.

ـ ألا تدعني أجلس قليلاً سوف أشتاق إلى هذا المكان؟

ـ البيت.. البيت الآن. هيّا..

واتكأ مـرتضى على بوقمـرة وراح يجرّ رجليه جـراً نحو حـومة السواحل.

لزم مرتضى الفراش.

كان في كل يوم يحس أن ثقله على الفراش يتضاعف. وأنه لا يستطيع مع ذلك الثقل الحراك. ولم يكن بوقمرة ليفارقه كان يزوره في كل مساء ولا يحدّثه عن السوق ولا الاسعار، كذلك سعدون الجقني يمرّ به يومياً ليطيب خاطره حتى توفيق كان يستغلّ زياراته لمرتضى ليتقرّب من علي وكم وجد عبد الحميد نفسه محرجاً أمام لا مبالاة علي البغيضة تجاه توفيق.

حسن قربوج حزين من أجل مرتضى المريض، ومتألم من أجل قاسم اللومي الذي ما إن ينهي جولته في الحانات حتى يطرق باب بيت مرتضى ويدخل وراء علي حيث المريض الراقد ليقول كلاماً غريباً وعجيباً. سمع القربوج عن الخمرة التي تذهب العقول ولكن الرجل عاقل وعقله راجحة، الخمرة إذن تعدّل عُقُول بعضهم وتطلق الألسنة من عقالها لتقول الحق ولا شيء غيره.

في كل زيارة يتحدث الرجل عن كل شيء بطلاقة وبلا خوف، الرجل يعي ما يقول ويفعل، يتحسر وبغبن كبير على نفسه: أعداؤه ثلاثة، الحياة والنظام والمرأة.

لا يمكن أن ينسى أن والده مريض ومتعب. وهو غاضب وغائب. دخل علي حصة الفلسفة في ذلك الصباح بلا عقل ما يسمعه متقطعاً في ذهنه لا يعنيه بل يوثره، النظريات نظريات الفلاسفة تعنيهم وحدهم..

إن ميتافيزيقيا الحب تدور حول تبعية الأب للأم أو الوالد لولده.. أو الفرد للنوع...

ـــ سعاد مبروك هذا الخطر الداهم.. لماذا لماذا؟؟

كل وليف يبحث عن وليفه الذي يمحو منه عيوبه حتى لا تورث فالرجل الضعيف البنية يبحث عن امرأة قوية البنية.. والرجل... يبحث... عن..... نواحي النقص في وليفه التي تناقض نواحي النقص فيه...

وينتفض علي في مكانه: لست ناقصاً. ومع ذلك أريدها وهي أكبر مني أستاذة وأنا تلميذ وفقير ووالدي جائع ومريض.

وأحس بالإشفاق على والده وعلى نفسه وهو ينظر إلى أستاذ الفلسفة يقف أمامهم يصب النظرية تلو النظرية..

....« كل فـرد يحمل في نفسـه متناقضـات هـدّامـة ممزقـة.... ليست اللـذة سـوى منجـد امتناع سلبي لـلألم... ولقـد أصـاب أرسطـو عندمـا قال الـرجل الحكيم لا يبحث عن اللـذة.. ولكن التحرر من الألم والهم..

وينتفض علي..

ـ كيف كيف؟؟ أتحرر من ألمي أو كيف أحفر فيه؟؟ أحفر في الجرح حتى أدميه..

ـ علي.. علي..!!

ـ مابك يا عبد الحميد..؟؟

ـ انتهت. انتهت حصة الفلسفة..

ـ أحقّـا..؟؟ لم أنتبه اليوم للدرس سمعت بعضـه سوف آخذ مسودتك فيما بعد..

مدّ عبد الحميد بالكراس إلى علي.

ـ تفضل يا سيدي..

ـ لماذا؟ إلى أين أنت ذاهب؟؟

ـ سأتركك اليوم يا علي..

ـ تتركني؟؟

ـ سوف أذهب مع الهادي في جولة قصيرة..

ـ وأنا؟! إلى أين تذهبان..؟؟

ـ نهج الباشا.. وعلى وجه التحديد مدرسة البنات.

قدم الهادي مُسرعاً:

ـ هيّا.. هيا يا عبد الحميد.. معذرة يا علي..

ـ ولكن؟!

ثم باستعطاف..

ـ عبد الحميد..؟ لماذا لا تبقى معي اليوم؟؟

ـ وسُهَيلة..؟؟

ـ ماذا؟؟

ـ لست وحدك العاشق..

ـ أسكت.. أسكت يا عبد الحميد..

ـ ألم تع ما قاله «الهنتاتي» اليوم في درس الفلسفة.. خضوع الفرد لنوعه.. المرأة التي تبدأ في إسعادنا واعتماد حيوية الردّ على حالة خلاياه التناسلية..

وضحك الهادي وأشاح عن علي بوجهه..

ـ أتهزأ بي يا عبد الحميد..؟؟

ـ أردت أن نضحك فقط..

ويجذب عبد الحميد، الهادي ويسرّ له ببعض الكلمات وبعدها يقول لعلي..

ـ عَوّضني الله صبراً عن سُهيلة قل ماذا عندك؟؟

ـ تعبت.. تعبت..

ـ أو تضيع علي موعدي لتحدثني عن التعب، أنا ما أذهب لمدرسة البنات إلا لأنسى الهم والألم اعتباراً بمقولة أرسطو.

ـ بسُهيلة؟؟

ـ ومثيلاتها..

ـ ومشكلنا.. مشكلنا الحقيقي يا عبد الحميد؟؟

ـ لا أريد أن أكون زعيم إصلاح..

ــــ ومن قال لك أني أريد أن أكـون زعيم اصلاح. ومع ذلك لم أعد أحتمل هذه المعيشة.. فلسفة ونظريات.. تاريخ وبطولات.. عباقـرة وعلماء.. رؤساء وأدمغة.. وكـلام كبير في المعهد وخـارجه ومشاكل نبحث لها عن حلـول ونسهر من أجلها الليـالي ونتحرّق لمعرفتهـا ونذوب كفتيل زيت وأمامنـا مشكل عويص لا نجـد له الحل: الخبز، عَصَبُ الحياة يا عبد الحميـد وعمودها الفقري كيف سنصمد بدون هذا العمود كيف؟؟

ــ إننا نتعلم.. و. وسوف ننجح..

ــ وحتـى ذلك الـوقت.. حتـى ذلك الـوقت مـــاذا نفعل؟؟ أتـدري من يساهم في رغيفـي؟؟ بوقمـرة. عم بـوقمرة يسـاهم في النصف وأمي تساهم في النصف الثاني بصنع الكبّوس.

ــ لست وحدك يا علي..

ــــ أعـرف أنني لست وحـدي ولا أنت وحــدك، الأغلبيـة الساحقة في القسم مثلنا في الشارع في الدولة، الدولة رغم المظاهر الخادعة وأجهزة الإعلام الكاذبة...

ــ إذا كانت هذه الحالة عامة فماذا تريدنا أن نفعل؟؟

ــ إنها عامة نتيجة سوء تصرف الحكام في البلاد.

ومرة واحدة يجد عبد الحميد نفسه يقف أمام علي..

ــ ماذا تقول!؟؟

ــ سمعتني جيداً أليس كذلك..؟؟

ــ سمعتك والحل في نظرك؟؟

ــ نثـــور..

وضحك عبد الحميد. ضحك طويلاً..

ــــ نـناقش نطـالب. نحاسب. نـرفض. مـاذا نفعل لسياسـة

معشوشة حطّموا فيها كل مقدس؟؟

ــ علي!! هل أنت بخير؟؟

ــ بخـــير..

ــ هل تعي ما تقول؟؟ سياسة.. هل تريد أن تحشر نفسك في السياسة؟؟

ــ وضعي سيء وأنا داخله مغلوب مهزوم. ثم أنا أقول رأيي بحرية والديمقراطية أساسها حرية القول والرأي...

ــ جننت إذن.. ثم.. تريدني أنا مثلا أن أثور؟؟

ــ لم لا؟؟ حقك..

ــ أثور، أثور وتفضحني جرائدهم...

شاب من زنقة السيدة سمية يسكن في دار جده لوالده.. السنة النهائية من التعليم الثانوي ثار على أصحاب السلطة والجاه ممن حاربوا فرنسا بطم طميمها..

ــ خائف؟؟ خائف كغيرك لذلك استشرى طغيانهم وكثر ظلمهم.

ــ أنا عجزت عن إخراج فرج من بيتنا ذهب باختياره ولو لم يذهب لظللت حتى اليوم تحت رحمته وربما حرمني التعليم فأمي كانت له صاغرة ذليلة؛ يا علي أنت تؤلب أوجاعي أنت د وما أنت، تريد الاشياء الصعبة والبعيدة والكبيرة أيضاً وكل ما أردته في الماضي في كفة وما تفكر فيه الآن في كفة.

ما تفكر فيه الآن مخيف يا علي.. لأننا نعيش في عهد مخيف أيضاً الكل متمسك بمكانه والكل يذبح من أجل مكانه..

وبشيء من الحيرة قال علي:

ـ عبد الحميد!! هل.. ترى مثلي؟؟

ـ أرى مثلك وأفكر مثلك. ولا أتعامل مع الحياة مثلك..

ـ كيف؟؟

ـ أنت مثالي يا علي في زمن خذلتنا فيه المثالية والمبادىء والأخلاق الثقافية وهذه قضية أخرى. فإذا أنت تخلط بين المثالية والواقع. أما أنا. أنا أعيش واقعي تراني مشاكساً ومسالماً حسب الظروف. وتراني قوياً وضعيفاً. أما أنت عنيد لا تلين. أتدري يا علي؟ الكل يشهد لك بالذكاء والقوة. والكل يستمتع خصوماتك مع أستاذ الفلسفة أما أنا، أشفق عليك..

يظل هو الأقوى حتى وأنت تحقق انتصاراً في كل جدل بينك وبينه ينتهي إلى خصومة، لأن مصيرك بيده، كمصيرنا نحن بيد الدولة. نستطيع أن نثور أن ندخل معها في أخذ ورد، ولكن مصيرنا في يدها، في أيدي الحكام..

ـ ذهبت بعيداً..

ـ واقعي ألم أقل لك إني واقعي. أنت عنيد وحاقد أيضاً..

ـ ماذا؟؟!

سنوات وأنت تدير ظهرك إلى توفيق الجقني والسبب؟؟ أنت تعرفه ويخصك وحدك أيضاً!!

أنت عنيد وحاقد واللون الكهرماني في عينيك لا يروم إلا الأشياء الكبيرة...

ـ لا أفهمك..

ـ لا تراوغ أرجوك..

ـ ولكن.. ولكن يا عبد الحميد.. لم أر كيف ومتى؟!

ـ سوف تتعذب. إني أعرفك سوف تتعذب كثيراً. أما أنا

فتكفيني سهيلة، اننا نتقارب في كل شيء. أما سعاد مبروك فشتّان بين وبين...

ـ لا.. لا تكمل أرجوك..

وبقوة قال:

ـ سبق السيف العذل..

ـ مسكين..

ـ لأنها؟؟

ـ ولأنك أيضاً..

ـ ولأني ابن دلال..؟؟

ـ على الطبقة أن تلتزم حدّها..

ـ خطأ.. خطأ.. أنا بنفسي لا بأبي ولا بزنقة السيدة سميّة.

ـ سوف تقطع رقبتك بنفسك وسوف تحطم نفسك بنفسك..

ـ إرادتي قوية..

ولكنها سوف تفترس نفسها في النهاية..

ـ عبد الحميد!! أريد أن أتنفس، أتنفس الحياة.

من المضحك أن يفكر الجائع في أن يتنفس الحياة ومع ذلك حياتي لا أراها إلا في الأشياء الكبيرة والبعيدة أيضاً.

ـ قُلْت ارادتك قوية؟؟

ـ عبد الحميد؟؟ هل قدر علينا أن ننشأ في عائلات مكسورة؟؟ حتى السليم فينا نكسره بأنفسنا لنواجه واقعنا؟

ـ خلقنا هكذا ونموت هكذا. و..أتدري أين نحن الآن؟؟

والتفت علي يمنة ويسرة..

ـ البلفيدير؟! هل قطعنا كل هذه المسافة؟؟

ـ أحقّا لم تنتبه إلى الطريق التي تبتلعنا؟.

ـ لم أنتبه.. صدّقني..

وفي طريق العودة عاد عبد الحميد للحديث..

أتعرف يا علي أنا أكره السياسة لأنها طبيخ داخلي وبصفة خاصة طبيخ بلدان العالم الثالث لها نكهة معيّنة يعرفها المختصون في هذا الميدان فقط، هم يطبخون السياسة حسب ميولاتهم وحاجياتهم ورغباتهم ويختارون لك ولي يختارون لنا جميعاً ما نأكل قد نصاب بالمغص أو بسيلان البطن أو بالحمى تلك مشكلة أخرى.

ـ ولكن؟؟ لم لا نرفض هذا الطبيخ السياسي؟؟

ومن قال لك أن هذا الطبيخ يقبل به الجميع؟؟

ـ إذن!!؟

ـ الرافضون كثرة، ولكن، بعضهم في السجون وبعضهم هرب إلى المساجد وبعضهم اغترب في موطنه وكثير منهم من خير الجنون على الألم، ألم المظالم التي اقترفت وتقترف مع كل طبخة سياسية. وحتى فيما يوزعونه من طبيخ لا توجد عدالة. وليست هناك مساواة معضهم يأكل حدّ التخمة وبعضهم مثلنا، مثلنا يجوع بينما الغير يشبع ويرمي بالبقية..

ـ لن أسكت يا عبد الحميد.. وأنت..؟؟

ـ ذلك شأنك، أما أنا فإني رغم الجوع ورغم الظلم أرفض المساواة المطلقة حتى في الخبز..

ـ لأنك تعودت الفقر والجوع والطحن و..

ـ دعني أكمل: تعودت العري والأرجل الحافية أيضاً مع أني ألبس أحذية مقبولة والبركة في خالتك السيدة ومع ذلك

أرفضها. أرفض المساواة التي تجعلني مجرد حيوان يتحرك وسط قطيع هائل من الحيوانات أنا لست مثلك أريد شيئاً معيناً وكبيراً ومع ذلك مادامت الأرض ليست كلها مرتفعات ولا كلها منخفضات ومادام هناك الكبير والصغير والغني والفقير والجائع والمتخوم مادام هناك هذا التفاوت في كل شيء فإني أرفض. بل سأمحوا تماماً ومن حياتي ضمير «نحن» «نحن مظلومون في هذا البلد» لا... أنا مظلوم في هذا البلد في هذا العهد وسوف أدفع عنّي ظلمهم بشتّى الوسائل وبكل الطرق.

نظر عبد الحميد إلى علي:

ـ أنت لم تفهمني. بالمناسبة كنت اليوم أنا والهادي على موعد مع فتاتين جميلتين، سُهيلة لي ورفيقة للهادي، علاقتي بسهيلة وقبلها كانت زينب رَفعُ مظلمة. رفع مظلمة يا علي، وكما قلت لك سوف أدفع عني ظلمهم، سأظل بين النجاح والفشل أجري حتى أجعل الناقص في حياتي في مستوى الكامل في حياة بعضهم فأنا كما قلت لك لا أريد الكل دفعة واحدة.

ـ تظل تقتّر على نفسك؟؟

ـ أظل أراوغ..

ـ ثعلب!!

ـ لن أرتاح حتى أشبع منهن والآن ألا تتركني أدخل بيتنا؟؟!

شدّ علي عبد الحميد من قميصه،

ـ هنّ فقط.. وهم؟؟

وضحك عبد الحميد ضحكة غريبة ومخيفة

ـ هنّ، تقدر عليهن بنظرات حانية وكلمات معسولة أما هم، راوغهم حتى تكبر.

ظل وراءها حتّى قاعة الأساتذة أراد أن يعتذر عمّا بدر منه أثناء حصّتها، لم يستطع. نظرتها الجانبيّة كانت كافية لتجعله يبتعد ويعود إلى الساحة عندماشدّه عبد الحميد من ثيابه كان يرتعش من شدّة الإنفعال.

— ماذا فعلت يا مجنون؟؟!

— أنا لم أفعل شيئا..

—لم تفعل شيئا؟؟ أنت تعرف سعاد مبروك أستاذة شديدة وقويّة ونادرا ما تضحك، واليوم أضحكنا جميعا الولد الجزائري «لخضر بن هدوقة» فتركيبة جسمه وحدها مضحكة فما بالك بكلامه وتصرفاته الهوجاء أحيانا؟

— أحسست اليوم إنّها تستلطفه..

— وما في ذلك.؟؟

— أغار.. أغار يا عبد الحميد..

— واضح أنك تغار وواضح أنك مريض ولو لم تكن كذلك لما رفعت صوتك وأمرتنا ، أمرتنا أن نكفّ عن الضحك.. أيّ جنون؟!

—لا يجب أن تضحك مع غيري.
— دعني ألمس رأسك..

وأراد عبد الحميد أن يضع يده على رأس علي إلاّ أنّه فوجىء به يصرخ
— لا تلمسني، لا تلمسني وإلاّ نسفت نفسي..
— هوّن عليك لن ألمسك. أنت بخير ومع ذلك أريد أن أذكّرك بأننا بعد هذه الإستراحة سنلتقي «بالهنتاتي» وبالفلسفة وأرجو ألا تثير غضبه عليك أكثر..
— طز.. ولكن عبد الحميد.. هل.. هل.. غضبت سعاد مبروك كثيرا؟؟
—ضاقت عيناها بشكل مخيف ورفعت شعرها الأسود إلى فوق بعصبيّة وضربت على المسطبة بقوة فإذا نحن جميعا ننتفض حتّى أنت، أصبحت كالقط المبلل ولعلّ سبب ابتلاعها ملاحظتك السخيفة وجهك المرتعش الأصفر.

وأغمض علي عينه بشدة وحرّك رأسه بعصبيّة:
— يكفي. يكفي..

جرس الساحة أعلن نهاية الإستراحة. في القسم عبد الحميد والهادي يتهامسان وعلي يفرك أصابعه في غيظ وتحفّز. بينما ترك أستاذ الفلسفة مقعده وظلّ يذرع القسم جيئة وذهابا وقال:
«هل يجب أن أتحدث معكم كشخص كبير في السن أو كرجل في سنّ الشباب مستعينا بالمثل أو الحكاية:
— تحدث كما يحلو لك يا أستاذ..

إنفلت الهنتاتي غاضبا:
— علي مرتضى أخرج من درسي..

ذلك ما أراده علي، أن ينفرد بنفسه وهواجسه بعيدًا عن الفلسفة والهنتاتي.

وعاد الهنتاتي إلى الموضوع أمامه: إنّ الصعوبة في فهم أفلاطون تكمن في هذا المزيج المسكر بين الفلسفة والشعر والعلم والفن. حيث لا نستطيع أن نذكر في أي نوع من الحوار يتحدث الكاتب أو في أي شكل، وهل هو حرفيّ أم مجازي وهل هو مازح أم جاد. إنّ حبّه للمداعبة والتهكم والخرافة والأسطورة يتركنا في حيرة أحيانا ونستطيع أن نقول عنه إنه لا يقوم بالتدريس إلا مستعينا..

وسكت فجأة:
— غير معقول.. غير معقول.. في كلّ درس هكذا لولا نجابته،
وراح يرفع شعره إلى فوق بأصابع رفيعة بيضاء، وبعدها قال بتقزز:
— ناده يا بن خذر..

انتفض علي في مكانه عندما سمع بن خذر يناديه
— علي... يا علي أدخل

ضرب عبد الحميد الهادي برجله من تحت الطاولة وهمس
— سجل..

وابتسم الهادي وقبل أن يقول ملاحظته لعبد الحميد سمع الهنتاتي يقول لعلي:
— أنت؟ ! (وهو يسوّي نظاراته منفعلا)
وتجاهله علي.. عندها صرخ الهنتاتي
— علي مرتضى قف..

ووقف علي ممتعضا:
— آخر أنذار أوجهه لك في المرة القادمة لا أريدك أن تتصرف كالصغار.
— ما عرفتني صغيرا أبدا..
— أنت صغير رغما عنك

ورد عليه علي باستهزاء:
— ولكن أكبر في بعض الأحيان...
— متى؟؟ متى يا صغيري؟..
— أكبر عندما يصغر غيري من الكبار..

وضحك الهنتاتي
— الكبير لا يصغر لا يصغر أبدا

وأحس علي بأن الهنتاتي اعتصر الدمل داخله وشعر بألم بغيض في صدره، ألم يعاني منه منذ طفولته.
— لن أسلم بكلامك حتّى أكبر..
— وحتّى ذلك الحين أريد أن أقول لك شيئا: الكبر غير مشاع إجلس مكانك إذن.

وامتعض علي و قال وهو يرتمي فوق فوق مقعده.
— أي كبر تقصد يا سيدي كبر النفوس أم كبر المراكز والرتب..
— أنت مزعج. مزعج للغاية. الكبر واحد وواحد فقط..
— ماذا أقول؟ وقد اختلطت المفاهيم ولكن هذا لا يمنعني من أن أكبر أحيانا. أقول أحيانا حسب فهمي له وقدرتي على ركوب صعابه.
— تخرّف سمعت نفس كلامك من أفواه كثيرة وفي

النهاية ظلّ أصحابها صغارا..

ولوح بيده أراد انهاء الحديث:

ولكن أحدهم تكلـم من الداخل كان وجهـه باردا قـاسيا وقد التمعت فيه العينان الزرقوان

— مشيئة الله يـا أستاذ هنـاك مشيئة الله.. الكل يـريد أن يكبر ويخطط لذلك ويكون الله قـد أراد والظروف قد وقفت حائلا لذا يظل الصغير صغيرا. ولا أعتقد ولا أظن أيضـا أن الذي يولد صغيرا يظل صغيرا فكما نأتي للحيـاة قطعـة صغيرة ونكبر نبـدأ أيضا لا شيىء ونصل إلى شيىء كبير ومهمّا..

وشعر عبد الحميد بحماس مفـاجىء واشتدت حمرة وجهه من الإنفعال..

— بمشيئة الله وبالمجهـود المتواصل نصل إلى شيىء كبير يـا أستاذ . وإن كنت أنـا شخصيا لا أعلق أهميـة كبيرة على الكبر ومع ذلك فنيت وسـأفنى في سبيل الـوصـول لأنّ طـريقي منـذ البداية وعـرة. فأنا صغير وحتّى الساعة مـا أزال صغيرا. طريقي مسالكها شائكة. فقر حتّى العظم وجوع حتّى العظم، وبرد حتّى العظم، وإهانـات حتّى العظم. وهناك مـن كبر ويكبر بطرق غير شرعيـــة. ويشبع ويكبر، يكبر... والتهبت الكلمات على شفـــاه الهادي وقاطع عبد الحميد

.... يشبع حتّى التخمـــة ويقـول لك شبعـــان أريـد أن أستفرغ مـا في بطني وأنت بجانبه جائع أتجسر وتقـول له: إعطني بعض ما في جوفك سأشربه لأواجـه به جوعي أريد أن أواصل أن أقف على رجلي كي أستمـــرّ كـي أنجح وأصبح كبيرا قـــادرا على شراء الخبـز. الخبـز في المرتبـة الأولى هـــذا الـرقيع الصفيق الـذي يخجلنا وراءه ولا يخجل كم ساوم النفوس والضمائر والأجساد.

ولبرهة ظلّ الهنتاتي مشدوها وقـد عقدت المفاجأة لسانه، ووجد نفسه ومرّة واحدة يقف بجانب الهادي:

— حتى أنت يا تونسي؟ لأول مرّة أسمع صوتك يا هادي يا تونسي. وأنت يا عبد الحميد؟

إنّني أستغرب ما ذهبت إليه أمّا أنت يا توفيق أرجو ألا تخيّب ظنّي فيك مستقبلا

وقال توفيق بهدوء:

— لا أعتقد أن مجرد حوار كهذا سيغيّر تفكيرك فينا يا أستاذ. أردنا أن نشرح موقفنا تجاه قضية نعاني منها نحن أبناء الفصل الواحد.

— هل سألتك رأيك..؟؟

ثمّ وهو ينظر في ساعته:

— هراء. هراء ما تقولون وأرجو ألا يفسد عليّ سلوككم وحتّى يكبر أقول له إلزم حدودك..

— لم أتعد حدودي..

— وأيضا إلزم الأدب وإلا..

— و إلا ماذا....؟؟

— قد أتسبّب في طردك..

وخرج وصفق الباب وراءه...

وهاج الفصل وماج، وسمعهم علي يقولون له:

— نحن معك يا علي معك.

وضحك علي لأوّل مرة في ذلك اليوم عندما هاجمه الجزائري لخضر بن هدوقة... بقبلة على خده

—إعطيلو الزّالوماتْ يا علي..

وضرب الهادي عبد الحميد هذه المرة عندما رأى علي يتجه نحو توفيق ويشد على يده بقوة وقال:

— سجّل...

عنـدهـا قفـز عبـد الحميـد إلى السبـورة وكتـب فـوقهـا بالطباشير الأحمر اليوم 30 مارس...... وقعت معاهدة صلح بين توفيق الجقني وعلي مرتضى.

عندمـا ابتسمت له صفقت جـوانحه فرحـا ونسي غضبه.
منـذ يومين كـان علي غاضبـا ممتعضا إنّـه سخيف، أجل سخيف وسـوف لن يعيرها اهتمامـه مستقبلا لكنّـه لما رآها تـدخل الفصل وجد نفسـه متحفزا، ونظـراته القلقـة لا تبارح وجههـا، وعندمـا ابتسمت لـه ذابت الثلوج التي تـراكمت على نفسـه منذ يـومين، وهـدأ شيئـا فشيئـا وآسترخت قسمات وجهـه واستخفّـه طـرب مفـاجيء. يحبها ويـريدهـا. ووجد نفسـه يتنهد بقـوة ويهمس في سره: تحبّها؟ لا شك أنك جننت يـا علي، تريـدها؟ كيف السبيل إليها؟!! أمامك الكثير الكثير» وتذكـر رقدة والده التي طالت، وتعب أمّه وأخواته وراء شغل الكبـوس وديون بوقمرة. وتصعدتها نظـراته في ضراعـة ولـه شديـدين «يـا رب.. يا رب كم أحبّهـا» وسرح بعيدا بخياله..

ومرّة واحدة انتفض في مكانه عنـدما سمع أحدهم يناديه

— علي مرتضى..

لمّا أدرك نفسه وجد أحد القيّمين أمامه هبّ واقفا.
— القيم العام يريدك..

— وتحرّك التلاميذ واختلطت أصواتهم.
علي لم يفعل شيئا..
علي لم يفعل شيئا..
الهنتاتي.. الهنتاتي..

وضجّت القاعة..
وضربت أستاذة العربية على المكتب أمامها..
— سكوتا. دعونا نفهم الأول ماذا هناك يا شباب.؟؟

واقترب القيم من الأستاذة وأسر لها ببعض كلمات جعلها ترتد برأسها إلى الوراء قليلا.. وتقول بهدوء بالغ..
— أنت مطلوب في الإدارة يا علي، والدك يموت
وترك علي الصادقية ومعه عبد الحميد والهادي وتوفيق وعم بوقمرة الذي كان في انتظاره في ادارة المعهد..

دخل وسط البكاء والصراخ ووجد الرجل الذي تعب كثيرا يرقد رقدته الأخيرة في هدوء. جلس قربه وراح يتحسسه ويذرف دموعا سخية.

«متّ أخيرا يا والدي بلا ضجّة. إنتهيت أغلقت عينيك وصممت أذنيك على كلّ المآسي. مأساتك إنتهت هكذا وببساطة، إنتهت وأنت جائع ومهزوم ومعوق.
ماذا أخذت من حياتك؟؟ لا شيء.. إنّك لم تشبع حتّى بالخبز.
الحياة خبز وحركة وموقف ونفس متأجج، والموت جوع

وإعاقة وخذلان وهمود. ما أشبه حياتك بموتك يا أبي!...

ورآهم في بيته — لم يناموا تلك الليلة ظلوا ساهرين حتى الفجر — حسن القربوج وقاسم اللومي وسعدون الجقني وبوقمرة. وخاله التّهامي الذي يراه لأوّل مرّة وخالاته ومحمد صديق والده ووجوه أخرى كثيرة.

ولا يدري كيف تمّت التجهيزات ولا من أين؟

وبعد الظهر من اليوم الموالي عندما وضعوا والده في الصندوق بكى بكى بانفعال شديد. أحس أنّ الرجل صّمم فعلا على الخروج من الحياة والبيت وانه لن يستمع إلى صراخ أخواته المتشبثات بالصندوق. وبكى عبد الحميد أيضا كأنّ الميت والده.

وخرج الموكب من حومة السواحل والزاوية البكرية فنهج باب سيدي عبد السلام فطريق الفدان والموكب يتقدم ببطء حتّى وصل مقبرة سيدي يحيي، واختلطت الوجوه. وجوه كثيرة استطاع أن يميّز داخلها وجه الهنتاتي، الذي قال له معزيا:

— تشجع يا علي كلنا إليها، كلنا نذهب كأننا لم نكن..

بعد ثلاثة أيام حزمت حنيفة أمرها مع علي.

— غدا تعود إلى المعهد يا علي..

— ولكن يا أمي..

— عد إلى دروسك لا وقت لنا للحزن.

اهتـزت الحلفاوين والحوم المجـاورة بعـد شهر واحـد من موت مرتضى،

قاسم اللومي قتل محمد،

والسبب؟؟ لا أحد يعرف..

وجـد قـاسم اللـومي في محمد الـرفيق والجليس انـه مثلـه ضـائع ومهمـوم وبـات لا يفـارقـه ، دخل معـه الحمام والحجـام والقهوة والحانة.

ذات مساء أخـذ محمد قاسم ليروّح عنه دخل بـه بيتا من بيوت نهج الجرابـة وجاءت زينوبـة ضاحكـة ورحبت بهما وقالت لمحمد وهي تغمز بعينها :

— جديد؟؟

— ضيف جديد..

— سوف نروّح عنه ونسرّه.

وراح اللومي يشرب ومحمد يشجعه ويخدمه.
وبعد وقت رآها تدخل صغيرة كما ربّاها كما حملها بين ذراعيه، ولمّا رأته صعقت وانثنت راجعة. وهتف بها محمد:
— يا أنت!! عودي، عودي إلى هنا..

وانتفض قاسم..
— دعها .. دعها تذهب..
— كيف؟؟
— قلت لك دعها .. دعها..

وراح ينشج كالأطفال..
بغت محمد وقال متعجّبا:
— ولكن ماذا؟؟ ماذا يبكيك..

ولم يستمع إليه قاسم اختطف زجاجة فارغة وراح يضربه بها والدم النافر يلوث وجهه وثيابه..
وضج البيت وشقّ الصّراخ نهج الجرابة..

أنت ووليفك في الطـريق، تسير معــه يـؤنسك وتـؤنسـه. تنسى أنك تسير أنّك تتعب..

وتمشي أيّامـا وأيّاما وأنت سعيـد بوليفك. فـالأيام تقصر والساعات تنكمش واللحظات تذوب. تذوب في الطريق.

ولكن!!

عنـدما يختصر وليفك رحلتـه معك ويتركك وحـدك تمشي ماذا تفعل؟؟

ماذا تفعل داخل المسـافات التي تتمطط والطـريق الذي يطول؟؟

ألم يحدث لأحــدكم مــرة أن فقــد وليفـــه في منتصف الطريق؟؟ أن تـركه وليفه إلى طـريق آخر. تركـه بمفرده يتخبط في الدنيا الواسعة الضيقة!..

ماذا فعل؟؟

هل واصل طريقه بسهولة؟؟

هل تعدّاه بلا عذاب الوحدة وألم البكاء.؟؟

ألم يتحسس صدره ليتفقد مكان القلب؟؟
ألم يتفقد جيوبه علّه يجد وليفه هناك؟؟

إن كـان الموت نهايـة حتميّة للحيـاة؟؟ ففي الحيـاة نهايـة الحياة ذاتها...
هل نهاية الحياة في الحياة نهاية حتمية هي الأخرى؟؟؟

تركتـه وتركها. بين الـركب الذي بقيت معـه والمحطة التي نزل فيها مسـافات. مسافات شـاسعة. ومع ذلك ظلّ واقفا يُعيّن الموقع الذي كـانا فيه معا والموقع الـذي تركها فيه والـوجهة التي سيسير فيها وحده.

ظلّ شاخصا أمام المبنى الكبير الصادقيّة..؟!!!
وطال شخوصـه تجاوز الزمن الذي توقف معـه وعاد به إلى الوراء. ورآها بعين مـاضيه القريب في الساحـة، في القسم داخله في أعماقه في كلّ نبضة من نبضات قلبه..
وسمعها تقول له:

— أحسنت، أحسنت يـا علي مـرتضـى إنك نـاجح بإذن الله..
— أريد أن أصبح مثلك يا سيّدتي..
— أستاذ عربيّة؟؟ مزاحم..؟؟!

وتضحك ضحكـــة مقتضبـــة يطيش لها صـــواب علي مرتضى.

— علي .. ارفع رأسك يا علي!. أنظر!. إقرأ!.

— إني لا أكاد أصدق يا عبد الحميد أخيرا أخيرا «كلية الآداب والعلوم الإنسانية»

— أخيرا يا علي، نحن في شارع 9 أفريل أنظر أنظر الكلّ معنا تقريبا توفيق والهادي ورضا سفطة وحسن كراي والولد الجزائري.. هيّا.. هيّا ننضمّ إليهم..

وهو يدخل البهو الكبير أحس برعشة واضطراب كبيرين هذه هي الجامعة إذن..؟؟

ونظر إلى السلم الذي يمتدّ أمامه وترك المجموعة صاخبة تهزّها فرحة النجاح واللقاء وأخذ في الصعود فإذا قاعات كبيرة ومدارج عديدة ومجهول يناديه. وصوت من الماضي يلحّ على ذاكرته:

— إنتبه إلى دروسك يا فرْخ..

— أبي إنني في الجامعة الآن. الجامعة يا أبي...

ويقفز من المفاجأة عندما يسمع صوت أحدهم:
— علي.. يا علي وَاشْ رَاكْ تعْمل.. الهنْتَاتِي بخْ....

وضحك علي وٱقترب من الولد الجزائري..
— كانت أيّام يا بنْ هدّوقة.

طلبـة الجامعة ثـلاثـة أصناف. صنف يعيش الترف وقـد يملك بعضـه السيـارات وصنف يجد في المنحـة الجامعيـة مخرجـا صغيرا من أزمة فقره. وصنف آخر تظل المنحة معه.

علي والهادي كل منهما يتنازل عن بعضهـا لفائدة عـائلته. أما عبد الحميد فقط احتفظ بها لنفسه.

قالت له أمه عندما وضعها بين يديها في المرة الأولى.

— ما هذا يا عبد الحميد؟؟

— المنحة الجامعية يا أمي..

— لا يا عبـد الحميد.. دعها لك.. وٱجتهد و أنـا بدوري سأجتهد ٱنظر..

ووضعت أمامـه مجموعـة كبيرة من الصّوف الشغل متـوفر والحمدلله أنا وخالتك حنيفة وبناتها ترسخنا في هذه الصّنعة.

وتنهدت بقوة.

تلكأ عبد الحميد قليلا وراح يمطرها بقبلاته المشوشة..

وضحكت سيدة..

— أنت يا ولد ألا تهدأ؟؟

لم تنقض السنة الجامعيّة الأولى حتّى طلع عبد الحميد على الجميع بموتوسكلات راح يمزّق بعجلاتها شارع 9 أفريل والشوارع المجاورة والأنهج وأطلق عليه الجميع لقب «موتوسيكل» وإزداد عبثا ورعونة بلقبه الجديد الشيىء الذي جعل علي يحتار في أمره ، وذات مرّة سأله:

— ما هذا يا عبد الحميد؟؟!

— ماذا؟؟

— الموتوسيكلات؟؟ وهذا الاسم الجديد؟؟ والجري المخيف في الشوارع؟؟

— إنني أنتقم وأرجوك دعني.

وأحسّ علي أنّ عبد الحميد يغلق باب الجدل فسكت مكرها.

كان يمشي بمفرده في نهج القصبة. لاح أمامه المبنى الكبير ضرب قلبه بقوّة وتدافعت الدماء الحارة إلى وجهه. وفجأة أحس بعجلة سحق صريرها الأرض بقوّة: علي!!

— عبد الحميد.؟!!.. لم نعد نراك..

— البركة في توفيق انه يحبك..

— يحبني وهو مخلص ولكنه اليوم تركني وزاغ مع الهادي..

— لأنّك مملّ يا عزيزي..

— أحقّا؟؟

وضحك عبد الحميد:

— ألا تركب ورائي؟؟

— أنا؟! لم أجنّ بعد..

وقفز عبد الحميد بجانب صديقه وراح يدفع الموتوسكلات أمامه..

— أنا مجنون وأحب حياة الجنون والمجون..

— لا تتغير ولن تتغير..

— وأنت أيضا لا تتغيّر، إستقـامة وكتب وانـزواء في مكتبة العطارين.
— وماذا تريدني أن أفعل؟؟
— روّح عن نفسك قليـلا واخرج من اطـارك الضيق قبل أن تندم. هذا الصخـب وهذه الحيوية داخل الجامعة لـن يعوضا. سوف ننجح ونتخـرّج ونغرق في الرسميـات ونتحنط داخلها. على فكرة رأيتك من بعيد تنظر إلى الصادقية أو مازلت تحلم؟؟
— مازلت أحلم يا عبد الحميد ككل صغير ناقص عاجز ثمّ إنّ الأحلام لا تكلفني شيئا..
— ولكنّهـا تأخـذ منـك أنظـر إلى نفسك صحتك لا تعجب..
— المهمّ الجامعة..
— كلنا ندرس ونجتهد ومع ذلك لا ننسى أنفسنا..

شدّ علي على يد عبد الحميد بقوّة..
—عبد الحميد.؟!!. أريد أن أراها..
— الصادقية أمامك..
— أخاف..
— تخاف؟؟!!
— لا أريد أن أذهب إليها وأنا كومة عجز وصغر..
— لم تعد صغيرا.. ثم..

(وحك شعـر لحيته بقوة). قـالت له إحـداهن أنك جميل عندما لا تحلق ذقنك.. فترك شعرها يطول

— .. إذهب وجرب. تحدث معها..
— بأي صفة
— بصفتك تلميذ يعترف لها بالجميل.
— لا أستطيع لأنّني أكره صفة التلميـذ هذه وأكره صفتها

أستاذتي سابقا. بكلّ بساطة أريد أن أتحدّث إلى سعاد..
— إذهب إذن وتحدث إليها بصفتها سعاد فقط فسوف تجدها كالكلّ، كلّ النساء، لا شيىء يميّزها عنهنّ صدّقني..
— أسكت.. أسكت يا عبد الحميد..
— كيف أسكت وأنت مصرّ على مغالطة نفسك الأشياء الكبيرة أوهام صنعتها حولك يا علي حتّى أصبحت تخشاها.
— لأني صغير في حاجة إلى شيىء كبير.
— تتبرّك به..
— أستند عليه.. أريده لي..
— وتعذّب نفسك به أليس كذلك؟؟ ومع ذلك أصبر ما دمت تريد الأشياء الكبيرة والصعبة.
— واليوم وغدا وبعد غد؟؟ أشعر بالفراغ في الداخل أنا أجوف أجوف صدّقني.
— لو أنك.. لو أنك تأخذ الحياة ببساطة. يا صديقي!
— لألعب دور الطالب ودور الكبير وأتركهم يلعبون بي. أدخل الحياة أعزل تختارني همومها وأظل كذلك أساعد همومها عليّ ولا أختار ولا أروم ولا أتوق ولا أريد. هكذا مجرد عابر كمرتضي والدي، ومع ذلك أريد أن أقول شيئا آخر لم أخطط عندما أحببتها. قلت لك كنت أجوف ومازلت وهي دخلت الأجوف تمكنت منه، زادت مصائبي مصيبة حبّها.
—وهذا الأجوف لا يروم إلا الأشياء الكبيرة أليس كذلك؟؟
— لا أدري، لا أدري يا عبد الحميد.. المهم أريد أن أشعرها بوجودي حتّي وإن لم تهتم ولم تكن تهتم. في داخلي مخزون نظيف وجميل يجب ألا أظلّ أتعذّب به وحدي.
— لماذا تتعذب به وحدك يا علي؟؟ هي الأخرى كانت تهتمّ بك وتخصّك بعنايتها.
— بُعدُ المزار والأشهر الطويلة جعلاني أنسى أنها اهتمت. وربما كنت متخيّلا لا شك أنني كنت أتخيل اهتمامها بي

وأنت أيضا تتخيل...

— يا علي ما كل هذا ؟؟ نحن جميعا نعرف أنها كانت توليك اهتمامها.. و..

— أحقا ما تقول؟؟!

— ولكن هذا لا يجدي شيئا الآن..

وعاد عبد الحميد يشد شعر لحيته بأصابعه

— عندي فكرة..

— أنجدني بها..

— أكتب إليها. ابحث في كراس العربية عن عنوانها.

— لا.. لا.. البيت لا..

— أتعبتني يا أخي أكتب إليها بعنوان المعهد، هل تريدني أن أملي عليك عنوان المعهد الصادقي؟؟؟

فـوجىء عبـد الحميد ذات يـوم بـرسـالة تصلـه إلى إدارة الكلية انتحى بها ركنـا وبسرعة فضّها وما كادت نظـراته تقع على الخطّ حتّى صرخت أعصابه..

— ماذا ؟؟ رسالة من علي..

وقرأ....

حومة السواحل،، في ....

سيدتي،،

لا أدري إلى أين تقودني خطاي؟؟

فـالمـمـرات كثيرة وعـديـدة وضيقــة. وكلما دخلت ممـرا اختنقت. لأني أجـدك فيـه أنت ورائي أمـامي حتّى في زقـاق السيدة سمية.. تصوّري؟؟

وفي هـذه الممرات أهـرب منك إليك. أهرب ، أحـاول أن

أتجاوز صغري، أحاول أن أقتفي خطاك أن أكبر..
وحتّى أكبر، هل أذكر اسمي.. ولكن لماذا؟؟
كنت واحدا من مئات التلاميذ الذين مروا أمامك.
كنت واحدا لم يستطع أن يمر من أمامك بسهولة.

— مسكين ... مسكين أنت يا علي..

وهو يغادر المكان بسرعة سمع أحدهم يقول له:
— أنا أعرفك..

والتفت عبد الحميد بقوة:
— وأنا ! وأنـا أيضا رأيتك. رأيتـك في السوق سـوق باب سيدي عبد السلا م.. في.. في قهوة السوق
— أنت تسكن حـومة السـواحل؟ أنـا الآخر من سكـان حومة السـواحل النهج الذي يتصل بزنقة مخلـوف. رأيتني مع فر ج؟؟ أليس كذلك؟

وامتعض عبد الحميد..
— أجل رأيتك مع فرج.. ولكن ماذا تفعل في الجامعة؟؟
— أدرس مثلك..
— تدرس؟؟

— أجل كنت مدرسا بالسنوات الابتدائية ثم كرهت التدريس وعدت للدراسة. اسمي بشير البورصالي. سنة أولى فلسفة..
— وأنا عبد الحميد بن بدر. سنة أولى آداب..
— أهلا..

تصافحا، وترك عبد الحميد البشير البورصالي معتذرا، وما كاد يخطو خطوات قليلة حتّى سمع مرة ثانية من يناديه
— عبد الحميد.. عبد الحميد..
— أو أوف..
— عبد الحميد صباح الخير..
— صباح الخير!! كاملة؟؟
— أين صديقك؟؟
— أيّهم؟؟
— علي..
— إني مثلك أبحث عنه..

وتركها وراح يبحث عنه داخل القاعات حتّى وجده يجلس بمفرده:
— أنت هنا؟؟!
— صباح الخير.. ما بك..؟؟

وأخرج عبد الحميد من جيب بنطلونه الرسالة..
— ما هذه يا علي..؟؟
— رسالة..
— رسالتك..
— أعرف أنها رسالتي..
— أنا .. أنا عبد.. ولست...

وترك علي مكانه وتحرك إلى الخارج وعبد الحميد بجانبه يكاد يتميز من الغيض..

— أنت عبد الحميد، أنت أنا الآخر، علي الآخر الذي أردت أن أخاطبه في رسالتي أنت نفسي الأخرى التي أبثها همومي وأحزاني، هي تعرفني، تعرفني كما أعرفها أريد أن أقول لها كلّ شيىء بالقلم حين يعجز اللّسان.

— والأخرى؟ . نفسك الأخرى؟

— من؟؟ آ.. تقصد سعاد مبروك؟؟

— ليس مهما..

— وتظل تتعذّب..؟؟

— من قال لك إني أتعذب..؟؟ إني أستعذب.. أستعذب يا عبد الحميد..

ونظر عبد الحميد إلى صديق الطفولة وأشفق عليه ممّا يعاني وأراد أن يغير الموضوع:

— آ.. نسيت.. كاملة تبحث عنك..

وزوى علي ما بين حاجبيه

— من؟ لا أعرفها!!

وارتجّ على عبد الحميد ووجه علي يزداد عبوسا وتقطّبا وأدرك أنه أغضبه وقد جاء ذكر كاملة في وقت غير مناسب أراد أن يساعده وكاملة. فالكلّ يعرف أنّ كاملة معجبة بعلي ولكن!.

ووجد نفسه مرة أخرى يغير الموضوع

— سأقضي يوم غد بحمام الأنف عند ماجد..

— وحدك؟؟

— توفيق أيضا والهادي ورضا وحسن والفيلسوف على ذكر الفيلسوف. تعرفت اليوم الى فيلسوف آخر من حومة

السواحل. سوف أعـرفك به عندما تحين الفرصة قـال إنه صديق فرج ترى ماذا يقول له فرج عن أمّي.؟؟

— وهل ستزعجك أقواله؟؟

— لا.. ولكن؟؟

— لكن ماذا؟؟ هيّا .. هيّا دعك من فرج.

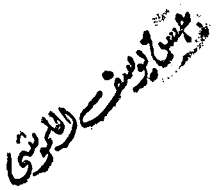

الغد، كان يوم عطلة، وجد علي نفسه بمفرده، الكلّ ذهب إلى حمام الأنف بقي مع أمه وأخواتـه في البيت الذي انضمّت اليه سيدة أم عبد الحميد التي فوجئت بوجوده:

— علي!!؟. لست مع عبد الحميد..؟؟

— أردت أن أبقى بالبيت..

— ألا تـذاكر مع الجماعـة؟؟ عبـد الحميـد قال عنـدكم مذاكرة كثيرة هذه الأيّام.

ظل علي ينظر اليها ولم يحر جوابا.

بعـد ظهـر ذلك اليـوم تـرك البيت وتمشّي على غير هـدى ووجد نفسه يـدخل دكان بوقمرة الـذي ما إن راه حتّى قام مسلما وهو يرفع بيده اليسرى سرواله الذي ارتخى من الخلف واستدار.

— علي! مرحبا بك يا علي.. تعال اجلس..

وأجلسه بقربه على كرسي صغير..

— كيف حال الجامعة والدروس؟؟

— بخير.. بخير..

ليس في رأس علي أي موضوع محدد ومع ذلك قال للرجل:
— عم بوقمرة .. ديونك.. و..

ورفع بوقمرة يده إلى فوق محذّرا:

— ماذا تقول يا علي؟؟ أنا تحدثت مع والدتك في الموضوع أرجوك إن جئتني من أجل هذا فالأفضل أن تعود من حيث أتيت..
— لا ولكن..
— لكن ماذا؟؟ دعنا ننعَم بهذه اللحظات بعيدا عن الحسابات والماضي..
— الماضي؟!! كيف تتعامل مع الماضي يا عمر بوقمرة؟؟
— أكرهه لأنه مؤلم ومع ذلك يظل يشدني بالحاضر بأفراحه وأتراحه. أستعذب فيه الفرح ويعاودني الحزن بنفس المرارة ويظل طاغيا، ومع ذلك لا أريد أن أنسى نفسي داخل أحزاني لأني مسؤول عنها، أي نفسي.
— أنت تقول هذا؟؟ ولكنّك فعلا نسيت نفسك يا عمّي.

وابتسم الرجل..
— أنا نسيت نفسي..؟؟
— انك .. انك لم تتزوج بعد المرحومة..
— أعيش على ذكراها...
— فقط؟؟ ولكن!!؟
— لكن ماذا؟؟ (وتنهد الرّجل) تزوجتها عن حب وجدت فيها كل شيىء. عوضت بها نقصي وحرماني. استطاعت أن تسدّ فراغاتي فراغات نفسي وجسدي طيلة سنوات عديدة وعندما ماتت لم تتركني فارغا و لم يحزنّي موتها بقدر ما أحزنني

موت نفسي لقد أخذت كل شيىء معها. بعد موتها حرص أهلي على تزويجي. وجندوا أنفسهم لذلك.... ولكن مشكلتي ليست في الزواج مشكلتي في الإنسانة التي أريدها.

— أإلى هذا الحد كنت تحبها..؟؟ جميل جميل ما تقول يا عم ولو أني آسف لها ولك.

—لم تكن جميلة كانت أنثى بأتمّ معنى الكلمة أجمل شيىء فيها ضعفها واستكانتها. هي أخت محمود الفزاني.

— عم محمود صاحب مخبزة سيدي العلوي؟

— كان صديقي وكنت أزوره في بيتهم وهناك رأيتها وأحببتها..

— أحببتها؟؟ !! ما الحب يا عم بوقمرة؟؟

— إنه شيىء كبير. ولكن كيف تسألني أنا الجاهل؟؟

— ألم تقل إنه شيىء كبير؟؟ وهذا الشيىء الكبير يمكن أن يحس به الجاهل والمتعلم أليس كذلك؟؟

— أجل يا ولدي هو عاطفة قوية لا تدري متى أو كيف تستبدّ بك ولماذا تجعلك تريد شخصا معيّنا دون غيره. ليست له لغة معينة ولا يفرّق بين الألوان ولا يعتبر السن ولا يعرف الأسئلة ولا يجد الأجوبة إنه أخرس أصم عنيد مشاكس به تعرف الخوف والرهبة والرغبة والصغر حتّى وأنت كبير تصبح صغيرا مناكدا. والغيرة؟! لا تسأل عن الغيرة انها آفة تولد مع الحب تفتك بصاحبها فتكًا..

واضطرب علي وأحس بالإختناق ونهض من مكانه وهو يرفع خصلة من شعره سقطت على جبينه.

— ماذا بك.؟؟؟

— أريد أن أخرج أن أستنشق الهواء..

وضحك بوقمرة وقال:

— يسبّب الحبّ الإختناق أيضا.

منذ انقسم طلبة الجامعة إلى شيع. هذا دستوري وذلك بعثي والآخر شيوعي لم يعد علي يتحرك بمفرده، في سنته الجامعية الثانية اكتسب شعبية كبيرة داخل الخليّة الناشطة. «الجامعة».

غاية علي كانت الحرية حرية الرأي وحرية القول وممارستها بدون تعصّب أو تهجّم. يكره الأحزاب والتحزّب الأعمى رئيسه هو عقله يرفض الظلم يرفض الطبقيّة يرفض العنصرية والتطرف يرفض اراء بعض الأساتذة المتخومين والمنقادين حد العمى وراء سياسة البلاد التي تستحق المراجعة، تستحق النظر وتستحق وقفة حازمة أيضا. ما دامت تونس ملك الجميع فكيف تكون سياستها ملك بعض الأفراد؟؟. ما للجميع للجميع!! كيف يتصرف البعض في حق الجميع حق الكل؟؟ حق «التوانسة» جميعا بحريّة، حرية يمارسونها وحدهم ويحكمون بها على طريقتهم

قال له توفيق ذات مرّة..

— أنت ترفض أشياء كثيرة يا علي وماذا ترفض أيضا؟؟

— لو كنت عبد الحميد لقلت لك انني أرفض .. ولكن..
— عبد الحميد؟؟! لا تجعلني أغار منه يا علي..؟؟
وأحس علي أنه جرح توفيق دون أن يشعر فقال له متأسفا:
— زلّ لساني والله .. ثم.. أنت وعبد الحميد سواء
— أحقا؟؟ اذن قل ماذا ترفض أيضا؟؟
ومغلوبا قال:
— نفسي

حومة السواحل... في /

سيدتي...
أرفض نفسي عنـــدمـــا تستكين وتقبلهم وتقبـل آراءهم.
عوّدت هذه النفس أن تختار وعودتني بدورها التمرد..
تمردت عليّ وتتمرد. في وجهـي ترفع رايـة العصيان وراءك.
أفتش عنهـا فلا أجـدهـا تتبعك ولكن إلى أين؟؟ وإلى متى تظل على هذه الحال؟؟
وأنت؟ إن كنت تشعـــريـن بها كيف تجدينهـــا؟؟ وكيف تتعاملين معها؟؟
أنا أتعامل معها بقسـوة وأنت؟؟ ماذا تجد منك؟؟ الصدّ أم النسيان؟؟
النسيان؟؟!
لا أرجوك، إلا النسيان!!
دعيني أعيش على أمل أنك تذكـرينني كما أذكرك. دعيني

أتصـور أنّ أَمَل ذكـرايـا عنـدك يعيش.. حتى أستمـر. أريـد أن أستمر. أن أقاوم أن أثبت.

ذات صباح فـاجأ عبد الحميد علي في مكتبة الجامعـة قال له دون أن يسلّم:

— المكتبة؟؟! دوما المكتبة يا علي..؟؟

— وما يضايقك..؟؟

— لا شيء.. فقـط.. أسأل متى تكتـب لي كـــلامـــا مفرحا؟؟ هيا.. هيا قم..

— إلى أين؟؟

— جماعتك تريدك وعلى رأسها الفيلسوف..

— أين هم؟؟

— حديقة الكلية...

سار علي بجانب عبد الحميـد حتّى الحديقة وتحت شجرة كبيرة وجدهم في انتظـاره وهو يمد إليهـم يده واحدا واحـدا قال الفيلسوف لعلي أما هذا وأشار إلى أحدهم..

— إنه الشيخ صبابة شعبه فلسفة.. معجب بك..

وتدخّل عبد الحميد:
— إنه بشير البورصالي يا علي هذا الذي حدّثتك عنه وقد تعرفت إليه في أواخر السنة الماضية..

وقال الفيلسوف..
— الشيخ صبابة أو شاعر الحب والغزل..

شدّ البورصالي على يد علي:
— أعرفك. «ولد حومة»..
— أنا أيضا أراك في الحومة مرحبا بك.. شعر وفلسفة كيف توفق بينهما؟؟
— كنت مدرسا قبل أن أختار الفلسفة درّست العربية للسنوات الخامسة والسادسة ابتدائي..
والتفت البورصالي إلى الهادي وتوفيق وقد التحقا بالمجموعة
— وأنتما أيضا أعرفكما..
وقال الهادي وتوفيق معا..
— ونحن أيضا نعرفك
ونظر الفيلسوف لعلي..
— بيت القصيد الآن الأستاذ المحاضر اليوم يستنكر الشغب داخل الجامعة.
قال كلاما كثيرا ملخصه: أننا صغار أدعياء لم نكن لنحلم يوما بما أسبغه ويسبغه علينا النظام من جامعات ومنح ومطاعم. وحكّ علي رأسه بعصبيّة: حِزْبِيّ لا شكّ في ذلك...
— قال أيضا: السياسة التي يجب أن نهتم بها أولا متابعة الدروس والعمل والإجتهاد لكي
— يصعد هو أليس كذلك؟؟!
(قالها علي ساخرا)

وتدخل عبد الحميد:

— ولكن يـا علي في كلامه الكثير من الصحـة. لا يمكن أن تصبح الجامعـة مسرحا للسيـاسـة. ثم نحن كطلبـة سياستنـا الدراسة.ثمّ ماذا نعرف نحن عن السياسة؟؟

ونظر علي إلى عبد الحميد طويلا وقال:

— أتدري لماذا كل كلمـة وكل حركـة وكلّ لفتة أصبحت تترجم إلى سيـاسـة في هـذا البلـد؟؟ لأننـا في بلـد لم تمارس فيـه السياسة كما يجب. ومع ذلك أقول وأنـا مقتنع أنّ السياسة ضغط من ضغوطات الحياة كالفقر كالجوع كالألم تماما. هي رهط مقيت من الرهص للحرية ثمّ يا صـديقي أن تطالب بزيادة في المنحة لا يعدّ ذلك تـدخلا في شؤون خـزينتهم، أن تثور ضـد الأوبئة التي يـوزّعـونها في المطـاعم الجامعيـة لا يعني أنك حشرت أنفك في مطابخهم الخاصة، أن تكسّر الأسوار أسوار أفكارهم حتّى داخل الجامعة «أمّ التعليـم» وتناقشهـا وتعارضهـا وتقول لا... لم لا؟؟؟. إنهم يغلقون علينـا أسوار الجامعة ولا يريـدوننا أن نتكلم حتى لا نكشفهم لأننا تعلمنا وبتنا نعرف أسرارهم بالحرف والرقم، جهلوا ويجهلون أننـا زرعنا لنحصد، زرعنـا العلم في أدمغتنا لنحصـد به الجهل في الأدمغـة الأخرى. فما كلّ من تعلّم.. تعلّم، ومـا كل من تثقف تثقف قاعـدة العلم نور تشذّ أحيـانا، فيصبح العلم عمى. وعمى العلم أشدّ فتكا من عمى الجهل.

ونظـر البـورصـالي إلى علي مشـدوهـا. بينما صفق البقيـة. توفيق والهادي ورضا وحسن والفيلسـوف وجماعة أخرى تنكمش داخلها كاملة..

وقال الهادي ووجهه النحيف يرتجف..

— والنتيجة؟؟

— أن تظل كما أنت..

(قالها توفيق)

— أجل تظلّ كما أنت يـا هـادي أتـذكـر الصـادقيـة

والهنتاتي؟؟ أتذكـر يوم وقف ثلاثتنا ضدّه إلى جـانب علي. يومها قلت ما قلت من أجـل نفسي أيضا. أحسست أنني يجب أن أرفض ما قـاله الهنتـاتي. في السياسـة أيضا، بل وفي كلّ شأن مـن شؤون الحياة يجب أن نرفض ما يُرفض.. نقول لا.. لأنّه لا..

وهذه الـ.. لا. لا نتعلمها. نحس بها تسيطر علينا.

مال حسن على رضا بجذعه..

— أنـا لا أدري لماذا يلجمـون أفواهنـا ويصمّـون آذانهم عن الحقيقة؟؟

ودفعه رضا بعيدا:

— أولا قف مستقيما عنـدمـا تتحـدث عن السيـاسـة، فـالسبب الـرئيسي في فشل بعض السيـاسـات وفي كل بلـدان المعمورة هـذا الوقـوف الغير المستقيم لرجـل السياسة فهـو يميل حيث تميل أهواؤه ورغباته وطموحاته ونزواته.

وزفر علي:

— لذلك هم يخافـون على أمكنتهم حتى من النسمة التي تهب على عـرش السيـاسـة عنـدهم. وإلا فماذا يمكن أن تفعلـه مجموعة — على حدّ قولهم — ضالة من الطلبة؟؟

قال: الفيلسوف..

— هم لا يخافـون الطلبـة هـم يخافـون الشعب النـائم أن يستيقظ مع الطلبة..

وضحك حسن:

— الشعب النـائم؟؟ قل الشعـب الممسـوح الضعيف.. ومع ذلك هـو مظلـوم طحنته القـوة من فـوق بظلمها وطغيـانها، حـاصرتـه وتمزّق بين ذليل وطامع ومنـافق وخـائف، وسلبتـه كلّ شيىء حتّى الهواء الـذي يتنفسـه لوثتـه. وبـاسم الحريـة قيدتـه وباسم الـديمقراطيـة ديمقراطية الكبـار شلّ الصغار.. أجـدادنا

وأباؤنا من قبلنا فإذا نحن جميعا نتفرج.

وتحرك علي وتحركت معه الجماعة.. وأردف قائلا:

— نتفرج يا حسن حتى مللنا الفرجة مللنا المسرحية وأيدينا مع ذلك قصيرة لا تطول الستارة، نريد، نريد أن ننزل الستارة عن المسرحية أو المهزلة الكبرى ونختار بأنفسنا مسرحية نكون فيها أبطالا. في الشعوب الأخرى المتقدمة من السهل أن تنزل الستارة عن المسرحية التي لا تعجبك أمّا نحن عاجزون حتّى عن الوقوف أمام خشبة المسرح والغريب أننا لسنا عاجزين عن صياغة مطالبنا ولكنهم وراء نا أمامنا. هم المسرح وهم الممثلون وهم الخشبة وهم الستارة. ونحن؟ نحن نتفرّج ونتداول على الكراسي. فالكرسي الواحد يجلس فوقه الآلاف من المتفرجين دون كلل أو ملل ويعْبرون يمرّون والمنظر هو نفسه والأحداث هي نفسها شيىء مقرف!!

وضاع البورصالي في كلام علي وأحسّه يحفر في الداخل وقال في سرّه:

— هذا الشاب يقول الكثير الكثير بدون خوف..

ليل الهم طويل كانت تجهله وعندما عرفته لم تعد تعرف معه النوم تظلّ تذرف الدمع في صمت. ذات ليلة سمعت دقات متباعدة على باب الدار.

— تراه من يكون؟؟

نادت بصوت متقطع.

— ليلى يا ليلي..

— ما بك يا أمي..؟؟

— الباب.. أسمع طرقات على الباب..

وتصنتت ليلى قليلا فإذا الطرق يعاود من جديد..

— هل أذهب لأفتح الباب يا أمي؟؟.

— إسألي من الطارق أولا..

وبقلب واجف اتجهت إلى سقيفة الدار ومن وراء الباب هتفت:

— من .. من الطارق..؟؟

— افتحي.. افتحي يا ليلى ولا تخافي..

وتصلبت ليلى في مكانها..
— من أنت؟؟
— أرجوك افتحي..
وما كادت تفتح الباب حتى صرخت بأعلى صوتها
— سالمة؟؟!!
وارتمت في حضنها تبكي وشدّت سالمة على فم ليلى بقوة.
— لا . لا يا ليلى أسكتي.. الجيران..
وظلت تحضنها حتى دخلت معها البيت وارتمت سالمة تعانق أمَّها وتبكي..
— سامحيني يا أمي سامحيني.. أمي.. أمي.. أرجوك شدّيني إليك .. أمي.. أمي..
وسمعت سالمة زينب تقول لها:
— إنها لا تستطيع... مشلولة..
وراحت سالمة تمرغ وجهها في صدر أمها وتنتحب..
— أمي..أمي...

كان صدر عويشة يعلو وينخفض دون أن تتكلم كانت تبكي بصمت. وبعد وقت طويل خرجت حشرجة من صدرها:
— ليت قاسم يسامحني أنا الأخرى..
— وأنا أيضا.. أ..

ولم تستطع أن تكمل كلامها عادت للبكاء وراحت تقبل اخوتها في شوق وتحضنهم.
ومنذ تلك الليلة ظلت سالمة تزور والدتها كل ليلة خميس تدخل البيت تحت ستارة الظلام محملة بالهدايا والمال.
وعرفت من أخواتها الكثير عن مرض أمها وموت جدّتها وموت مرتضى وأحداث أخرى صغيرة.

ذات مرة قالت لها زينب:

— أتدري يـا سالمة؟ تطـورت الحياة في حـومة السـواحل أصبح عندنا العديد من طلبة الجامعة حتّى الأطبّاء...

— أطبّاء؟؟!!

— أجل أطبّاء...

— حـومـة السـواحـل..؟؟ نهج سيـدي سلطـان أليس كذلك؟؟!

— أجل أنت تعرفين؟!

و أحست سالمة بحنجرتها تيبس كأن يدا قوية قبضت على رقبتها.

ذابت الأشهر الأولى من سنة 1972 وعلي يتكلم، ويخطط للإضرابات ويقودها والكل له مطيع حتّى الشيخ صبابة أصبح يتبعه كظله، لخضر بن هدوقة هو الآخر والذي قال يوما أمام الجميع:

— أنا دِزيري وَاشْ جابْنِي نثورْ معاكمْ بينْ عربْ بِينْ تركْ..

أصبح يحفظ كلام علي ويردّده. ويضربُ معه. علي القوي علي الزعيم الذي أحبّه جلّ طلبة جامعة تونس للآداب يتعذّب. يتعذّب ويكتب الرسائل وعبد الحميد يقرأ.

حومة السواحل... في /

سيّدتي،

بعضنا يعيش للغاية وبعضنا للهدف والبقية تعيشها الحياة. الحياة تعيش الإنسان. في غالب السنوات تحتكر الحياة الإنسان..

ما الحياة؟؟
هل نختارها أم تختارنا؟؟

إن كانت هي التي تختارنا فلا يمكن أن نقول أننا نعيش حياتنا بل الحياة تعيشنا تسير بنا.. تسيّرنا أيضا، وبدورنا نسير البقية الباقية من حياتنا ليعيشها غيرنا بإرادتنا وغصبا عنّا نعيش لغيرنا

مصيبة أن يعيش الناس للناس. غيري يعيش حياته وحياتي تموت في الزوايا من أجل غيري. لست نادما ولا ناقما ولا محتجا. منذ صغري أردت أن أختار إلا أن كل شيىء اختارني. حتّى نفسي اختارتني لأواجه عذابا أليما وأنا انقدت وراءها.. ومع ذلك أتعذّب بين أن أعيش لنفسي أو أعيش لغيري وأتمزق وأجد في هذا التمزق لذة؛ لذة الحرمان ولذة المواجهة مع نفسي المتمردة ويصهر ني العذاب حدّ التشفّي، التشفّي فيها.

حومة السواحل... في /

سيدتي..

غربـة. غربة بين الأهل والأصـدقاء والنـاس. وحدي ومع الآخرين، عـاجز رغم الحركـة الكبيرة التي عندنـا في كلية الآداب هذه السنة أيضا. وهذه السنة الثالثة نريدها أن تكون متميزة.

ننظم لا ضراب كبير نضرب به الآراء القـديمة والمعتقدات البالية نكسر به القيود قيودهـم ونفك عنّا حصارهـم.

الاضرابـات التي قمنـــا بها في السنتين الماضيتين لم تأت بنتيجة.

إننـا نفكـــر في تجمّع كبير نهزّ بـــه الجامعـة يجب أن يخرج الرفض من الجامعة. يخرج من المثقف. أن يقول لا...

لا أزعم أن الـــذي لم يتعلم لا يعـــرف الـــرفض. ولكن الرافضـون على كثرتهم مشتتـون كما قال صـديقي عبـد الحميد.. بعضهم في المساجـد وبعضهـم في السجون والبقيـة خائفـة وأقول

أيضـا: هنـاك فئـة أخـرى لا تكـاد تجد نفسهـا من كثـرة الـزيف والنفاق.

الديمقـراطية حكم الشعب ولكن الشعب لا يحكم حتّى نفسه، السلطـة ضدّه لامعـة، وللأسف ذاب الشعـب في السلطة إمّحى داخل المغالطات والتسويف.

كما ترين سيدتي رغم الحركة التي أدور فيها مع رفاقي بَيني وبين نفسي تنافر وقطيعة. لا أجدها وإني أحنّ إليها إليك..

فوارق وبعد مسافة وعذاب.

ونفسي دومًـا تحُوم حولك. تهيم بك. وإني لمشفق عليهـا. ومع ذلك أرجـو ألاّ تشفقي ولا تحزني على هذا المراسل. فأنـا أعي مـا أفعل، يـدفعني إليـك إحسـاس نبيل صـادق ولا يمكن أن أشطب إحساسي من حياتي حتّى ولو لم يلق الاهتمام.

جمع علي جماعته يوما حوله وقال لهم غاضبا:
— لن نذهب إلى المطعم الجامعي اليوم
لن نـذهب ولننتقم من سيـاستهم الحقيرة مـا تتركه اليـوم تجده غدا..
وضجّ الجميع بالضحك..
واندفع البشير مهتاجا.
— تضحكـون..؟؟ ألم نترك يـوم الجمعـة الماضي مـرقـة «باطاطا».. وجدناها من الغد «طجين»..
وقرص الفيلسوف خدّ البشير:
— ألم يعجبك الطّـاجين؟؟ ألم نأكلـه وكنّـا كـالنسـاء خائفين.؟؟
— لم أكن خائفا «المنحة» تعشْ رأْسكَ الكبيرة.

وضحك عبد الحميد ضحكة مجلجلة:
— رأس فيلسوف!! أليس كذلك؟؟

وأراد توفيق أن يقول شيئا إلا أنــه سكت عندما تدخلت كاملة..

— هل النساء وحدها هي التي تخاف؟؟

تشبيه جائر كلنا نخاف من القوة والظلم، وحريّة المرأة إنما أعطيت لتكسر الخوف والظلم ولتقف ضـدّ التقـاليـد والعـادات القديمة.. أليس كذلك يا علي؟؟

وتصلّب علي:

— أنا؟؟! لِمَ تسألينني هذا السؤال؟؟

وتلعثمت كاملة..

— لانك ملمّ بجميع القضايا تقريبا..

— إلاّ هذه القضيّة صدّقيني..

وتحرّك علي والكل وراءه وظلت كـاملـة واقفة متخشبـة في مكانها، وأحتار عبد الحميد

ولم يشأ أن يتركهـا بمفـردهـا، ظلّ واقفـا هـو الآخـر بينما ظلت أذناه تلقط كـلام علي: «لن نذهب إلى المطعم لن نأكل، لن نأكل. الخبز ضرورة ولكن بدون كرامة لن تنفتح له شهيّة بطوننا.. إنها...

...طز .. قالها عبد الحميد غاضبا ومتجاهلا سأل كاملة:

— لماذا تقفين هكذا؟؟

— عبد الحميد.. علي يكرهني لماذا؟؟!!

— علي.. علي لا يعرف الكره صدّقيني.. فقط له ظروفه..

— أيّة ظروف.. ؟؟

— ماذا أقول؟؟ عموما هو لا يهتم با لمرأة

— واضح.. واضح..

— ولكن يا كاملة لماذا علي؟ لماذا؟؟

— لا أدري.. رأيته وأراه كبيرا..

وقفز عبد الحميد في مكانه..
— ماذا أنت أيضا؟؟ خُرّبتْ..
— ماذا بك..؟؟
— ترينه كبيرا؟؟
— أراه كذلك..
— إذن أنت؟؟!! ولكن هذه الصفة «الكبير» ما معناها؟؟
— مثلي مثل بعض الناس عندما نروم شيئا ونميل إليه يكبر داخِلنا غصبا عنّا.. يكبر إحساسا وقيمة..

وضرب عبد الحميد على رأسه..
— رومنسية حمقاء ومع ذلك دعي الأيام تتكفّل بنا جميعا.
وتركها واتجه إلى المكتبة. هو يعرف صديقه جيّدا، إنّه يترك الكل ليستفرد بالكتب. وجده مع مجموعته المفضلة كتبه وأوراقه وعندما أحسّ علي بعبد الحميد قال له دون أن يرفع رأسه:
— أين اختفيت...؟؟
— بقيت مع كاملة لم تكن كيسا معها اليوم يا علي...
— ومتى كنت كيسا معها أو مع غيرها؟؟
— أحرجتها!!
— يا لشعُورك الرقيق!.
— وأنت يالك من متعجرف مكابر. صحيح مصيبة أن يعيش الناس للناس. لا أدري ماذا وجدت فيك كاملة حتى تتشبث بك كل هذا التشبث..؟؟ جمال وأخلاق وثروة وسيّارة. وماذا وجدت أنت في سعاد مبروك حتّى ظللت تهذي وتهذي، إستمع إليّ جيّدا ودعك من الخيال. النساء كل النساء واحدة ما دام الهدف واحد: الفراش، وفي الفراش كلهنّ سواء..
واغتاظ علي، ارتعش
— حيوان، أنت حيوان

— يا إنسان قل بربّك ماذا ستفعل بسعاد مبروك لو قُدر لك وحصلت عليها؟؟ هل ستضعها في إطار للفرجة مثلا؟؟

— لن أصغي اليك.. لن..

وجمع علي أدباشه بسرعة وغادر المكتبة وهو يكاد يتميّز من الغيظ.

كان يتململ في جلسته، لم يستطع البقـاء طويلا، انتفض في مكانه ومرة واحدة قام ويمناه تحشر قميصه داخل سرواله.

— تصبحون على خير..

— إلى أين يا عبد الحميد؟؟

— إلى البيت يا رضا..

— ألا تسهر معنا الليلة..؟؟

— لا أستطيع، إنني أفكـر في علي لنـد أغضبته اليـوم في مكتبة الجامعة ولست مرتاحا لما فعلت..

وتـرك عبـد الحميـد استـوديـو رضـا وراح ينهب الطـريق بالموتـوسكلات نهبـا حتّى دخل حومـة السواحل وتـرجّل داخل زنقة السيدة سمّية وأخرج المفتـاح وفتح به باب منزله حيث وضع الموتوسكلات ثـمّ عاد على أعقابه وأراد أن يطـرق الباب المجاور فوجده مفتوحا.

دخل حيث تعوّد أن يجد علي الذي ما إن رآه حتّى قال له:

— عدت باكرا الليلة ما المناسبة؟؟

— ألم تغضب منّي اليوم يا علي؟؟

وضحك علي:
— ألذلك عدت؟؟
— أجل يا علي..
— فكرة طيبة سوف أغضب منك كل يوم وبذلك أضمن رجوعك باكرا إلى خالتي سيدة..
— كما ترى لم أرجع إلى خالتك السيدة رجعت إليك أنت..

ونظر كل منهما إلى الآخر بحب، وجلس عبد الحميد بجانب علي وعيناه لا تفارقان الورق الذي على الطاولة الصغيرة وقد تعوّد أن يقرأ فيه ما يكتبه علي من رسائل لسعاد مبروك. ورق عادي وبسيط.
وفجاة قال علي لعبد الحميد..
— أتدري..؟؟ لقد هزّني اليوم كلامك كثيرا صدمني وحرّك في عدّة مشاعر كانت نائمة كنت قتلتها داخلي لعدة أسباب لا تجهلها جعلتني أحسّ بعدم القدرة على مواجهة الواقع، واقعي لأنّي لم أجد الحلّ البديل.
— عيبك يا علي أنك تعرف نفسك وتغالطها
—أخافها، أخاف نفسي يا عبد الحميد حدّ العجز، ثمّ هي لم تخدعني ربّما خذلتني ولكنّها لم تخدعني أنا مشيت حتّى اليوم في الطريق السويّ..
— أنا مثلك يا علي..
— أنت غيري..
— أنا مثلك وغيرك في نفس الوقت ما دام ذلك لا يغضبك ويرضيك، مثلك فحياتنا تزامنت وتشابهت وغيرك لأني أرفض أن أعدم نفسي وأظل أحلم بطيف امرأة وبشبح سياسته.
السياسة بشعة والمرأة أيضا. السياسة والمرأة صنوان. كلّ

واحدة منهما تأخـذ منك ولا تعطيك و إن أعطتك فـلأنّها أخذت منك الكثير الكثير وبعدها ماذا تفعل بك؟؟

فكما تتنكـر لك المرأة تـرميك السيـاسة من على كـرسيهـا وبهرجهـا المزيف بقسـوة وتظلّ تهوم بين السجـون والمنـافي أو تلتهمك العزلة وتفتك بك.

أنـا غيرك أعيش يومـي وأفكر في غـدي بكل مـوضوعيـة، الوظيفة والبيت والزواج والأولاد..

— الزواج؟؟ ألم تقل إن المرأة بشعة؟

— بشعة عنـدما نـذهب وراءها بعقولنـا وقلوبنـا، جميلة حدّ الهوس عندما نتعامل معها ونفكر فيها بأجسادنا.

— لا يمكن أن أفكر في امرأة بجسدي فقط..

— عجيب أمرك! دومًا تشذّ عن الناس..

— مـاذا أفعل وجسـدي مغلق..؟؟ إني أحترم جسـدي جسدي الخلق جسدي الابداع والقداسة..

— جسدك الفناء أيضا.

— كل الأجساد تفنى وتبلى..

— لماذا لا نمتعها إذن.؟؟

ودخلت حنيفـة ورحبت بعبـد الحميـد ووضعت أمـامـه فنجانا من القهوة، وقبل أن تغادر الغرفة قالت مبتسمة.

— مـاذا يا أولاد؟؟ مـاذا عن الـدراسـة والنجاح؟؟ اننـا ننتظركم بفارغ الصبر حتّى تتولوا أمْرنا لقد تعبنا.

لمّا انسحبت أمّ علي قال عبد الحميد بحماس:

— أسمعت؟؟. أسمعت يا علي؟!

وتنهد بقوة:

— لن نكبر، لأننا منهم، منهم يا علي ومن يخرج من هؤلاء فقـــر وصغـــر لا يجب أن يفكـــر في الحب أو الكبر أو يمارس السياسة. يا علي مشكلتنا خبز وهذا مـا كان يشغلك منذ الثانوية

مشكلتنا خبـز وفقر ومخلفات عـديدة متراكمة في انتظـار أن نجد لها الحلول..

عم سعـدون سيهـدي لتوفيـق سيارة عنـدمـا يحصل على الإجازة وربما يهدي لسْعـد سفطة لأبنـه رضا طـائرة ما دام يملك السيـارة والاستديـو وأنت وراءك حنيفة وأخـواتك البنات، وأنـا ورائي السيدة وهذه هدّها شغل الكبوس وإني لمشفق عليها منه. أمثالنا لا يجب أن ينظروا بعيدا يا علي...

— لا. لا يا عبد الحميد. سأعمل وسأنتظر..

— الحياة لا تنتظر ومع ذلك فكّـر جيدا فيما قلته لك وغدا نلتقي..

وقبل أن يتركه:

— هاتي هذه سوف أقرؤها الليلة قبل النوم.

واستل من تحت يده الرسالة وغادره إلى منزله..

ما كاد يفتح الباب، حتّى نادى أمّـه بصوت عال: يا سيدة يا أم عبد الحميد أين أنت؟؟

وأسرعت المرأة نحوه وهي تضحك..

— ألا تخجل من نفسك؟؟ تصرخ كالأطفال..

— هل أزعجتك يا سيّدتي العزيزة؟؟

— إخفض صوتك وقل كيف عدت باكرا؟؟

وضحك عبد الحميد وهو يتبعها إلى المطبخ..

— أطردوني فتتـذكرت أن مفتـاح بيتك في جيبي فدخلت فوجدتك بانتظاري.

— مهذار..

— انتظري علي..

وشدّها إليه وراح يقبل شعر رأسها وجبينها

— أحبّك يا أمي أحبك..

وضحكت المرأة..

— يكفي يكفي.. هل نتعشى سويا الليلة؟؟

— الليلة وكل ليلة..

لأول مرة ينتبـه عبد الحميد إلى أنّ أمّـه كانت تأكل القليل القليل وتكوم بقيّة الطعام أمامه وهي تنظر اليه في سعادة..

— أمي أرجوك أنت لا تأكلين!!

— أكلت قبل أن تأتي بقليل..

— صادقه؟؟

— ماذا؟؟ هل تحقق معي..؟؟

وتركت مكانها بجانبه..

— إلى أين..؟؟

— سأحضر لك فنجان قهوة..

وضرب عبد الحميد على رأسه..

— لعنك الله يا علي نسيت أن أشرب قهوة خالتي حنيفة ومع ذلك إسرعي بقهوتك يا أماه..

ودخل بيته وارتمى في فراشه وأخرج الرسـالة وفردها أمامه. عندما وضعت السيـدة فنجان القهوة على الكرسي بجـانبه لم ينتبه إليها عبد الحميد

.... كان مأخوذا برسالة علي....

حومة السواحل في/

سيدتي،

عـالم الناس غـريب وأغرب منـه تصرفهم، الكل يمشي في ركـاب الـزيف والخداع الكل يمشي في جنـازة القيم والمبـادىء والأخلاق يدفن في قبر هـذا الثالوث نفسه رغبته طمـوحه وكل ما يفعله ليؤكـد استمراريته في هذه الحيـاة هو المشي المتواصل حتى ضاقت المدافن بالأموات ضحايا السلطة والنظام الفاسد.

وأنـا بيني وبين هـذا السلـوك تصـادم وتنـاحـر وبغضـاء واقتتال أيضا.

أرفض، أرفض الـزيف والنفــاق ومـا يعيشـون. أرفض أن أدفن بيدي قيمي ومبادئي وأخـلاقي حتّى لا أفقد نفسي لأنني لا أستطيع أن أبكي عليها ولا أن أمشي في جنازتها.

حـاولت المرات أن أجرب وأتعـامل مع ما يعيشـون مثلهم

ولكن روحي لا تصفو لحياتهم ولا للبدع داخلها. قد يدفعني حب الإطلاع للتفرج عليهم وأنا المتفرج سرعان ما انكمش على نفسي كالصّدفة ترفض ما لا تروم.

إنها تضطهدني، نفسي تضطهدني، فكلما ركنت اليها ثارت وكلما إطمأننت إليها هزّتني برغبات وطلبات لجوجة وباتت تخلق لي الأجواء المرعبة فأدخل لججا طامية في البحث عن المساواة والعدالة الإجتماعية والحرية.

والجامعة تشهد توترا وانقساما هذه السنة أيضا. ونحن الطلبة نضرب ونهدد ونزعج ونطالب ونفشل أيضا.

في رأسي ألف فكرة وفكرة لكي ينجح الطلبة في اضراباتهم وثوراتهم ضد ما أسميه بالنظام الفاسد من القمة إلى القاعدة، ومع ذلك والحصار حولنا يشتدّ، لا أخفي عنك ما بنفسي أنا في حاجة قبل كل شيىء إلى كل سنة من سنواتي داخل الجامعة لا أريد أن أرسب بسبب هذه الاضرابات.

فأنا، أنا في النهاية صغير يحلم منذ أن كان صغيرا .. بالكِبَر..

طوى عبد الحميد الرسالـة ووضعها بجانبه وقال وكأنّ علي أمامه يسمعه:

— أرأيت..؟؟ أرأيت يـــا علي؟ أنت الآخــر تخاف على الإجازة لأنها السبيـل الوحيد الـذي تستطيع به أن تحل مشـاكلك الموروثة من فقر وخصاصة وبعدها سوف تنسى.

صدقني يـا علي سوف تنسى ولكن! لن أقول لك شيئـا ممّا أفكر فيـه ولن أصدمـك بالحقيقـة سوف تعيها بنفسـك وتعيشها أيضا.

— ماذا فعل الطلبة الذين سبقونا؟؟

ثاروا وأضربوا وعنـدما حصلوا على الإجازة تـوظّفوا ونسوا. ولهم عـذرهم فنحن لسنا شعب ثـورات ولا شعب قيم ولا شعب مبادىء نحن شعب فقير في حـاجة إلى الخبـز ومن فقد مكـانه في الصف أمام المخبزة مات جوعا.

ومـرة أخـرى يترك عبد الحميـد فنجـان القهـوة ويتمطّط تحت الغطاء. وكالعـادة يأخذ وسادته ويضعها فـوق رأسه ويروح في نوم عميق.

نشطت إدارة كليّـة الآداب شـارع 9 أفـريل ففي كل يـوم قرار وفي كل يوم إعلان جديد..

وآخر اعـلان وجده الطلبـة على السبورة وقـرأه الفيلسوف بصوته الخشن:

«يحجّر بعد اليوم التجمّع داخل الكلية على أكثر من ثلاثة أشخاص»

وأحس علي بالإختناق ولم يعلق بشيىء..

وقال عبد الحميد: طز فيهم وبول عليهم.

وقال رضا: عندي في الأستوديو..

وقال توفيق: قهوة الجقني..

وقال الهادي: الشارع.. الشارع أفضل..

وتنهد حسن: ملاّ راحة..

وصفر آخر: محسوب..

واختلطت الأصـوات وضجّ البهـو وكثـر اللغط والأخـذ والرد بعضهم يحتج وبعضهم يهدّد

وجـاء العميـد وأراد الطلبـة أن ينقسمـوا إلى مجمـوعـات

صغيرة لا تتجاوز الثلاثة أنفـار ولكنهم سمعوا علي يقول بصوت عال:

— لا تتفرّقـوا ما دمنا كتلـة واحدة لن يقدروا علينـا وهذه بداية التمرد والعصيان..

تنـداح الحيـاة، أو الدائرة المحكمـة ويقبلهـا الكل مـرغما بعمقهـا وجحـودهـا وداخلهـــا تكثـر نقط الإستفهـام والتعجب والفواصل وتدخل الدائرة جمل اعتراضية لتصبح أساسا.

بين نقطتي الإستفهــــام والتعجّـب علي يخطط لاضراب كبير، وبين الفـواصل ينظر اليـه عبـد الحميد بـأعجاب وثقـة ولا يقف. تأخـذه الـدائرة ويطير فـوق الموتوسكـلات وراء الفتيـات والمقـاهي والحانات ويختفي بـاستـوديو رضـا مع الهادي وأحيانـا حسن وتوفيق والفيلسوف وهؤلاء قلما يتركون علي وحده..

في غمرة التحضيرات للإ ضراب لم يترك علي عبـد الحميد وشأنـه. ذات يـوم وعند انتهـاء المحـاضرة أخذه وتـوارى بـه عن الأنظار داخل حديقة الكلية.

— أين أنت يا عبد الحميد في هذه الأيام المهمّة في حياتنا داخل الجامعة؟؟

— إنّي معكم أعرف أخباركم يوما بيوم يا علي..

— أريـد أن أراك كل يـوم والهادي أيضا، لماذا يـزوغ هـذه الأيام كثيرا؟؟ أريدكما بجانبي يا عبد الحميد.

— ماذا أقول؟ أنا أكـره السياسة ومع ذلك مقتنع بما تقول وتفعل..

— هذا لا يكفيني، ولكن الى أين تختفي؟؟.

— أعيش..

— تعيش!! تعيش يا عبد الحميد؟؟

— أجل، نوع من العيش لم تجربه أنت بعـد.. ولو جربته لتغيرت نظرتك للحياة تماما وتغير معها تقييمك للأشياء..

— لا فائدة منك يـا عبد الحميد لا فائدة. هـه. هنيئا لك بعيشك، ومعذرة إن أزعجتك..

وأراد علي أن يبتعد عن عبد الحميد ولكن هذا الأخير شدّه بقوّة.

— إلى أين؟؟ لن تذهب قبل أن تسمعني يا علي..

— ماذا تريد أن تقول؟؟

— أنت غضبت ولن تتخلى عـن غضبك إلا إذا راضيتك وعندما ترضى أسكت أنـا وتتكلم أنت، ولكن هذه المرة لا.. لا يا علي.

وأحس عبـد الحميـد بعناد لا يقـاوم وهـو يقف أمـام علي متصلبا:

— هـذه المرة سأتكلم أنا وبعـدهـا لو تمسكت بمـوقفك مني وظللت غاضبا تأكد من أنني لن أراضيك..

ونظر علي مباشرة في عيني عبد الحميد..

— عبد الحميد؟؟!

— دعني أتكلم أرجـوك، سران أخفيتهما عنك، الأول: هو إنني أخـافك، أجل خفتك منـذ كنّـا في مـدرسة بـاب سعـدون، كنت مثالا لـلإستقامـة منذ الصغـر. ومنذ الصغـر كنت أنتظر أن تتخلى ولـو قليـلا عن استقـامتك حتّى أنفض شبح الخوف منك وأتحرّر من قيوده، وأنا أقـرأ رسائلك إكتشفت أنك أنت دوما أنت لا تتغير. ندخل عـامنا الرابع في الجامعـة وأنت كما عرفتك زمـانا. تمنيت لو كنت مثلك ولكن ظروفك غير ظروفي..

— كيف؟؟!.. هل أنا ابن الحقني؟؟
— منذ كنا صغارا قلت لك ذات مرة لا أريد أن أكون إلاّ ابن أبي..
—ومنذ كنّا صغارا تنسى أنّني عرفت الجوع مثلك..
— أنت لم تعرف معي فرح وهـذا السرّ الثاني الذي أخفيته داخلي وبكيت منه. دخل فـرج بيتنا وصفعتني بـه أمي لأنها تحبه. وصفعني هـو الآخر لأنني ابن رجل آخـر. كان يضربني بمنـاسبة وبغير مناسبة. ومرت سنوات عـرفت فيها القهر والظلم وبعدها إختفى. وبكت أمي، وصبرت على بكـائهـا ثم لما لم أعـد أحتمل ذهبت اليه إلى فـرج ليعود إلى أمي وصفعني بـرفضه وأمي لا تعلم أنني ذهبت إليه. ولا أدري هل نسيت أم لم تنس؟؟ ولكن أنا! أنا يا علي لم أنس. ظللت مريضا لا أبرأ من مرضي.
أشيـاء داخلي تهدّمت أردت أن أرفع أسسهـا على قـاعـدة وفي كلّ مرّة أختبر ميلي في رفع هـذه الأس س واكتشفت أن حالي لا ينصلح إلا بالانتقام.
الإنتقام من المثقفات المتحررات الممزقات أخلاقيا.
— الحرية والثقافة لا يحكمان على المرأة بقتل حواسها.
— المرأة غير الرجل يجب أن تظل نقية أحبّت أم كرهت.
— يمكن .. (قالها علي وهو ينظر إلى صديقه في حيرة)
— أكيد. أتدري ما أحس به مع كل واحدة منهن؟؟
— ومن أين لي أن أعرف؟؟
قال عبد الحميد وقد تشنّج وتهدّج صوته :
— جـزار، لأني رأيت الجزار كيف كـان يـذبح أمي أمـام عيني.
كـان فرج يتفنّن في ذبح أمي أمـامي، وفي تلك السن كنت أجهل كل شيىء عن الـرغبة والجنس. ومع ذلك تتشنّج أعصـابي ولا أدري السبب. إلا أنها ظلت متشنجـة حتـى كبرت. وعنـدمـا أدركت، استللت مديتي ورحت أذبح وأسلخ وأطعن.
أطعن حتـى يمضي التشنج وأنسى، ولا أنسى تعـاودني

الرغبة في الطعن ومن جديد أطعن في الداخل، الداخل يا علي.

ثمّ وهو يدخل يده في جيب سرواله بعصبيّة ويأخذ سيجارة ويشعلها بأصابع مرتعشة وعلي يتبعه في ذهول:

— عبد الحميد؟؟ سجائر؟؟!

— وخمرة أيضا ألا تقبلني صديقا؟؟ أنت حر

ولأوّل مرة أحسّ عبد الحميد أنه زعزع علي وجعله يتخلى عن رصانته عندما رآه يرتدّ برأسه إلى الخلف ثمّ يعود بها مسرعة إلى الأمام ويقول في ذلّ:

حميدُ وماذا تقول؟؟.

جماعة علي وزّعت منشورا داخل الكليـة والمدارس الثانوية المجاورة، يقول المنشور:

«الـرفض هـو الـوجـود هـذا إذا رغبنـا في الـوجـود، يخرج الرفض من المثقف. تخرج اللا من المثقف.

الإضرابات بـاتت ضرورية ليست تهديدا ولا مسـاومة انها رد فعل تجاه الضغط على قبول الـ. نعم.

الاضرابـــــات مجابهة، رد فعل، صمـت بصمت. أنـت تصمت ولا تمدني بتفسير ولا تعطيني حقا وأنـا أصمت وأترك لك المكان.

لابد من المواجهة. مواجهة الطلبـة بادارة الجامعة مواجهة الصغير بـالكبير. مواجهـة المحكوم بـالحاكم. المرؤوس بالـرئيس. الضعيف بالقوي.

حتّـى متى يظـل الكبير يخطـط والصغير يطبق؟؟. يطبـق الغـرور والظلم والنـزوات والتجنّي. ليس كلّ مـا يخرج به الكبـار على الصغار قـانونيـا وانسانيـا وجهدا مبـذولا ومراعـاة لمصلحة. ليس كل ما يخرج به الكبار منزها وهادفا.

سنضرب وسنخرج عبر أسواق المدينة أولا..
لماذا أسواق المدينة؟؟
لأننا هناك نجدهم....
الحمال والشياة والخضار والفحام والجزار والبطال والمحروم والمظلوم والجائع.
هناك في «الحومْ العربي» نجد أسر كاملة تنحشر داخل أقفاص صغيرة، يتّخذونها بيوتا، اسمها «وكايل».
سندخل الأحياء الشعبية أيضا حيث «القرابي» وبيوت القصدير حيث الفقر وقلة المال. ماهم عند الكبار، يشبعون، ويتمتعون، ينامون يحكمون مصير العامة بين غفوة ويقظة، بين سكرة وكأس، بين فخذ وسرير لذة...
سنخرج، لا تخريبَ ولا خراب لأننا في النهاية نحن واحد يجب أن تتقارب أهدافنا مهما اختلفت يجب أن نتقارب من أجل هذا الوطن.
موعدنا إذن الجمعة. يوم الجمعة نقاطع الدروس، لن ندخل الكلية ومن هناك من أمام المبنى الكبير ننطلق ننطلق في تجمع كبير صامت.

عن رئيس الحركة

علي مرتضى

دخلت جملـة اعتراضية في الدائرة، تخلّـف الهادي في غمرة التحضيرات للاضراب. وضاع سـؤال علي عنه في الصَّخب. عبد الحميد وجد نفسه ممـزقا بين أن يظل بجانب علي أو يهرب منه إلى الهادي الذي صار في حاجة إليه:

— خذ خذ اقرأ يا هادي.

— ما هذا يا عبد الحميد..؟؟

— منشور علي، وزّع اليوم في الجامعة، موعدنا يوم الجمعة

— لن أحضره

— لماذا؟؟

— مريض..

— ولكنك تستطيع أن تمشي على رجليك.

— انني محطم مهزوز ثم إني أخـاف أن تفضحني تصرفاتي ويكشفني علي..

— والحل..؟؟

— لن أحضر. ثم أيّ يوم نحن؟؟

— الاربعاء.

— والموعد يوم الجمعة؟؟ بعد غد؟ لا لا..

— كيف؟؟ تـركتُهـم وجئتك، لتشـارك لتحضر، يجب أن تشارك يا هادي

— ما كل هذا الحماس يا عبد الحميد؟؟

— لأنّـه علي وعلي لا يخطىء وهــذه المرّة الإضراب منظم والمظاهرة مدروسـة. خذ. خذ إقرأ المنشور. أتدري يـا هادي أشعر أن يوم الجمعة هذا يومي؟؟

— تمهل أأنت واثق من نجاح هذه المظاهرة؟ أتذكر المرات السابقـة ماذا كان يفعل بنـا رجل البوليس؟ كان يـواجهنا كأنه يواجه عدوا مطالبًا بتدميره ومحقه.

— هذه المرة. سننجح بمشيئـة الله. ثم أنت سوف لا تظل مختفيـا هكـذا في استوديـو رضـا، أخشى أن يبحث عنك علي في البيت وعندها.

— البيت؟؟ يا للهول! أنا ضعت، ضعت يا عبد الحميد.

وبكى بهستيرية، انتفض لها عبد الحميـد وغادر الاستوديو مسرعا.

خرج عبد الحميد من عند الهادي وهو يتذكر يوم الإثنين المشؤوم الذي زارا فيه الطبيب معا. ويذكر أيضا كيف صرخ الهادي من هول الصدمة، قال له الطبيب:

— إذن.. تريد أن تعرف سبب تشقق شفاهك؟؟

— أجل

— منذ متى شعرت بهذه الحالة؟؟

— منذ أسبوعين تقريبا.

وسكت الطبيب طويلا. ثم قال له بهدوء:

— هل تعاشر النساء؟؟

وشعر الهادي بالحرج..

— ككل الشبان.

— ومع ذلك أنت مريض..

وبعد فحص دقيق قال له:

— ككل الشبان تعاشر النساء؟؟ اهتم بنفسك يا ولدي. لأنك مريض. السفلس. نعم السفلس..

— السفلس؟؟! والدواء..؟؟
— أنا أعطيك الدواء. وأنت.. تجنب المرض وأسبابه قدر المستطاع.

وهو يقطع المسافة بين باردو وباب سعدون أحس عبد الحميد بشوق كبير إلى علي فاتجه نحو شارع باب البنات ثم 9 أفريل ترك الموتوسكلات أمام باب الجامعة ودخل البهو، التفوا حوله ولكنّه كان يبحث عن علي. فتش عنه في كل القاعات في المكتبة والحديقة، إتجه الى السكرتارية وهناك وجد رسالة من علي أخذها ووضعها في جيب قميصه وفي الممر.
التقى بكاملة.
— كاملة!!؟
— أهلا عبد الحميد
— ألم تري علي؟؟
— رأيته يخرج مع جماعته..
— أرجوك يا كاملة إن رأيته قولي له إني أبحث عنه.
— أنت تمزح!!؟
— لماذا؟؟ صدّقيني لا أمزح..
— وهل أجسر على علي؟؟ أخاف.

وضرب عبد الحميد كفا بكف..
— لا حول ولا قوة إلا بالله..
— وممّا تخافين؟؟
— أخاف من نفسي أخاف أن يصدّها علي.
— مجانين. كلكم مجانين. إلا أنا.

خرج من الكلية واختطف الموتوسكلات وطار بها حتى وزارة المالية وهناك تركها عند بائع الجرائد ودخل الأسواق حتى مكتبة

العطارين ولمّا لم يجده عـاد حيث ترك الموتوسكـلات وطار بها إلى زنقة السيدة سمية بحث عن علي في بيتـه فلم يجده وبعدها دخل كالعاصفة إلى بيتهم

— أمّي.. أمي.. سيّدة..

وجدها جـاثية تصلي نظر إليها طويلا، ثمّ عـاد أدراجه وطار من جديد وعجلات الموتوسكلات تمسح الأرض مسحا.

ترك سوقي بالخير وبـاب الخضراء وراءه. دخل زحمة العاصمة وراح يلف ويدور هنا وهناك.

وبعدهـا دخل قهوتـه المعتادة بسـاحة العملـة وكان قـد ترك الموتوسكلات عند الباب.

— فكتور.. فكتور

— جاك جاك. شبيه شِيدي وحْدو؟؟

—une Bièrre

— على راشي وعيني.

وجـاءته البيرة وشرب، وطلب زجـاجـة أخرى وأخـرى وراح يشرب في سعادة، وترك مكانه وهو يترنح

— فكتور..

— شيدي..

— By à demain

— شَحّ شَحّ لشيدي.

— à demain

وركب الموتـوسكـلات وطار بها في الشـوارع. وأفلت زمـامـه المرات. ومال يمنـة ويسرة ومادت به الأرض، ثم هـربت من تحته ومرّة واحـدة إنقلب أحسّ بصدمة كبيرة علِي رأسـه وسمع صوت إرتطام بجـانبه وضجّـة كبيرة من حولـه ورأى ظلالا حمراء تغطي وجهه والـدنيا من حولـه تدور وتلف ورآى وجـه علي يطل عليه، هتف فرحا:

— علي! علي أخيرا وجدتك..

أراد أن يقوم لكن رأسه ثقيلة ثقيلة.

صرخ..

— علي ما هذا؟؟ لا أريدها يا علي خـذها، خذها أنت سعاد مبروك لك أنت.

وانتفض بقوة وتحشرج صوته:

— أمي.. أمي.. هل انتهيت مـن صـلاتك يـا أمي؟؟ هيّـا.. هـ... يـا... إ.. لـ..يّ..

على بعد بضعة أمتار من قاعة «البالماريوم» قال الفيلسوف لعلي:

— ترى هل سينجح إضراب يوم الجمعة يا علي؟؟ وهل سيثبت الطلبة أمام تاتاريّة الميليشيا؟ وهل سنقدر هذه المرّة على صياغة مطالبنا؟؟

— القدرة وعدمها أجتهاد منّا، المهم: أن نصبر، أن نثبت،

— سوف نثبت يا علي. (قالها رضا بحماس) سوف نثبت حتّى نخرج جميعا من جمودنا ويبسنا. نحن نتنازل وهم أيضا يتنازلون.

وسأل حسن رضا:

— ولكن ما معنى نتنازل يا رضا؟؟

— هناك دوما الحل الوسط حتّى لا نخرّب على أنفسنا.

— هل أنت خائف؟؟

— أنا وأنت وهو كلنا خائف. كلنا يعرف أن السلطة قوية ويدها طائلة، وما نريده نحن شريف غاية شريفة وحوار نزيه — أن تبسط بيننا مائدة الحوار— يقولون ونقول. يسمعوننا ونسمعهم ثم نحن لسنا أعداء.

وتدخل توفيق:

— صحيح ما تقول يا رضا. لا يجب أن نشعر نحوهم بالكراهية لأنّهم مهما ظلموا ونهبوا وسرقوا هم في النهاية منّا ونحن منهم وأنا أقول ومن دون تجنّي على أحد قد يكون والدي منهم ويكون والدك أنت منهم يا رضا وأحد إخوتك منهم يا فيلسوف، في وجه من ستقف؟؟ ومن ستقاوم؟؟

عندها قال الفيلسوف ضاحكا:

— أتذكرون المرة الفارطة كيف جاءنا «المهدي» يزحف عندما ضربه أحد رجال «البوب» ولمّا واجهه وجد نفسه وجها لوجه أمام والده؟؟

—أرأيت يا فيلسوف؟؟ يجب أن لا تترك المواجهة بيننا العداء والكراهية لأنّه في النهاية يكون حالنا واحد سنبكي على بعضنا مهما كانت حججنا ومهما تحجرت قلوبنا. لو مات المهدي من الضربة التي كالها له والده لبكى الرجل حياته. بكى القاتل قتيله لأننا جميعا ظالم ومظلوم.

ودسّ توفيق يده تحت ذراع علي

— لماذا تسكت يا علي؟؟

— اني أصغي اليك يا توفيق، وكما قلت: نحن ظالم ومظلوم لذا وجبت المواجهة. ليت الظالم يدرك هذه الحقيقة حتى لا يتضاعف عدد المظلومين فتكثر الأحقاد بين أبناء الخليّة الواحدة: بيت، أو مدرسة، أو مؤسسة، أو وطن.

— دعنا من يوم الجمعة، ما رأيك في الفلم الذي كنا نشاهده؟؟

— أتدري أنّها المرّة الأولى التي أدخل فيها قاعة سينما الفلم كان ممتعا، تمنيت لو أنّ عبد الحميد معنا..

ظلّت وراء الباب تترقب عودته، ومن حين إلى آخر كانت تنظر إلى عقارب الساعة في رعب الواحدة صباحا، الثانية صباحا، غفت وأفاقت على صوت المؤذن ضربت على صدرها «الفجر!! وعبد الحميد لم يعد؟؟

ارتمت في الزقاق تخبط على باب بيت علي فتح الباب:

— خالتي السيدة؟! ماذا بك؟؟

— عبد الحميد لم يعد حتى الساعة..

— إنّه متعوّد على السهر..

— يسهر كثيرا ولا يبيت خارج المنزل يا علي..

— عودي إلى فراشك حتى الصباح..

— لم أنم. ثم إنّي خائفة..

وتشبثت به..

— أدخلي.. أدخلي..

وأفاقت أمه وأخواته وتحرّكن هنا وهناك ولبس علي ثيابه وخرج وراح يذرع نهج السواحل في حيرة يخرج من زنقة مخلوف حتى شارع سيدي عبد السلام ويعود على أعقابه من نهج الزاوية

البكرية ثمّ يـدخل بيته ويسأل عن عبد الحميد ويعـود من جديد يذرع النهج، نهج السواحل حتى نهج القنطرة.
عندمـا نشطت الحركة وقف مترددا أمـام باب بيت تـوفيق ثم طرقه. وظهر توفيق متثائبا
— علي ؟؟ صباح الخير..
— صباح الخير عبد الحميد لم يعد البارحة إلى البيت سأذهب للبحث عنه.
— انتظرني سآتي معك..
لبس توفيق ثيـابه بسرعـة وخرج حيث وجـد علي في انتظاره، اتجهـا رأسا الى نهج سيـدي سلطان سألا عن الهادي في بيتـه فلم يجداه هناك.
قال توفيق لعلي:
— هيا معي إلى نهج البصيلي. إلى حسن
ومن نهج البصيلي خرج معهما حسن إلى فرانسفيل أين يسكن رضا:
قال رضا غاضبا: الكلاب لابد وأنهما في الاستوديو.
وقطب علي جبينه ولكنـه وجد نفسـه داخل سيارة رضـا الذي راح ينهب شارع باب سعدون وباردو نهبا.
عندما وصلوا العمارة لهثوا الواحد وراء الآخر على السلم.
امتدت يد رضـا تضغط الجرس وبعد برهة أطـلّ الهادي برأسه وتراجع إلى الخلف.
— ماذا تريدون ماذا تريدون..؟؟
وبغتوا وظل كل واحد منهم ينظر إلى الآخر ولا يفهم شيئا.
ثم وهو يرتعش
— أخبركم الخائن. أخبركم.
ووقف يتحداهم والباب نصف مغلق
— مريض نعم مريض بالسفلس.
وانتفض علي من شـدة الغضب ودفع البـاب الـذي فُتِح دون

مقاومة إذ وجد الهادي نفسه يبتعد ويتقهقر إلى الوراء في خوف:
وقال علي:
— تمرض تموت مشكلتك وحدك أين عبد الحميد؟؟ عبد الحميد لم يعد البارحة إلى البيت وليس من عادته ثم أنت. والدك الشيخ يسأل عنك.
نكس الهادي رأسه إلى الأرض.
— عبد الحميد؟؟ كان معي بالأمس..
— متى؟؟
— تركني في الساعة الثالثة بعد الظهر تقريبا..
— ماذا تقول؟؟ أين ذهب؟؟ ألم يقل لك أين سيذهب؟؟
— لا..
قال رضا للهادي مستفسرا:
— وأنت من قال لك أنك مريض..
— يوم الاثنين ذهبت مع عبد الحميد إلى الطبيب..
وضع علي يده على جبينه في اعياء..
— والآن؟؟

نظر توفيق إلى ساعته اليدوية.
— انها الثامنة صباحا نذهب ونبحث عنه في الكلية قد نجده مع الفيلسوف.
تمسّك الهادي برضا..
— أذهب معكم..
— لا .. (قالها علي غاضبا)
وضرب رضا على كتف علي مهدئا.
— دعه يذهب معنا يا علي.
لحظات وكان الكل يبحث عن عبد الحميد في الكليّة. تفرّقوا. الكل يسأل ويبحث:
قال علي في سره:

المكتبة وإن كنت أعلم أنها آخر مكان يذهب اليه عبد الحميد.

أطلّ على القاعة فإذا هي تكاد تكون خالية. عدد قليل من الطلبة راه هناك، إستدار بسرعة عندما سمع صوتا يناديه.

— علي.. علي..

التفت حيث الصوت وبدون انتباه..

— صباح الخير. ما بك؟؟

وارتعشت أطرافها. بردت ومع ذلك تقدمت منه.

— عبد الحميد سأل عنك.

وبلا تمييز شدّها من ذراعيها.

— أين هو؟؟ أين هو يا كاملة؟؟

— كان هنا البارحة بعد الظهر وسأل عنك.

— البارحة بعد الظهر؟!! شكرا لك يا كاملة شكرا..

تركها وعلى شفتيها بسمة باهتة وعاد يائسا من حيث أتى. والتقوا عند سيّارة رضا أمام مبنى الجامعة دون نتيجة.

— والعمل؟؟ (قالها علي في ضيق)

— نترك السيارة هنا ونبحث عنه في المستشفيات.

— فأل الله ولا فألك يا رضا..

— هل عندك حل آخر؟؟..

ومن توّهم ذهبوا إلى العزيزة عثمانة.. والكل واجم. وارتاح علي عندما أجابهم الممرض بالنفي عن سؤالهم عن عبد الحميد. وبعد ذلك أخذوا طريق القصبة إلى مستشفى شارل نيكول وهم يحثّون الخطى أطلق حسن نكتة لم يضحك لها أحد:

— ممنوع التجمع لأكثر من ثلاثة.

ومع ذلك تفرّقوا:

— علي وتوفيق ورضا يسرعون في نسق واحد وخلفهما حسن والهادي...

ودخلوا المستشفى وفي مكتب الضبط انتظروا طويلا بعد أن

أملوا الممرض الاسم...
وقال لهم بعد وقت طويل وهو يلوك علكة بميوعة
— عبد الحميد بن بدر أليس كذلك؟؟
وبصوت واحد: أجل
— إنه عندنا..

ونظـروا إلى بعضهم في حيرة وذهب المـمــرض وانشغل عنهم. وجاء آخر وانشغل عنهم أيضا.
وجاء المسؤول وسألوه نفس السؤال:
— أين بن بدر؟؟
— آ.. اعطهم ثيابه يا منجي.
وجاء أحد الممرّضين يحمل صرة ملوّثة بالدم. صرخوا جميعا:
— ما هذا؟؟!!

وأخذ علي الصرة وفتحها.
— إنها ثيابه. هـذا الحذاء وهذا السروال وهذا القميص. ومن جيب القميص سقطت رسـالـة ملطخـة بـالـدم وضعهـا علي في جيب سرواله دون انتباه.

ووسط حيرة الآخرين قال للممّرض.
— ولكن أين هو؟؟
— في قسم 45..
— نريد أن نراه
— والتصريح؟؟
— أي تصريح؟؟
— التصريح بالدفن..
— الدفن!! مات؟؟ مات بن بدر.؟؟!!
وهجم علي على الممرض يخنقه،

— كاذب.. كاذب.. كاذب..

وتبعثـر الهادي بين الأرجل واختلطت الأيــدي، أيـدي حسن وتوفيق ورضا لتخلّص المرض من براثن علي الهائج.

أوقف السيارة، وأشعل الضوء الصغير: وقال متثائبا:
— دينار وسبع مائة مليم..
— هل وصلنا إلى باب العسل؟؟
— نحن في مدخل حومة السواحل أنت من الحومة أليس كذلك؟؟
— أجل.. أجل..
دفعت أجرة سائق السيارة وراحت تتستر بالظلام. إرتعشت أطرافها رعبا وخوفا تمتمت:
— أين هم؟!! ولكن !! يا لطيف!!..
«الحومة على غير عادتها! (وخبطت على صدرها) يا لطيف! يا لطيف؟؟ ماذا هناك؟؟ تراهم لم يسهرون حتى الساعة المتأخرة من الليل..؟؟»
رأت وجوها تعرفها. أرادت أن تفرّ منها .تفرّ إلى أين؟؟ وَهذا الترتيل !! ترتيل القرآن الذي يقف له شعر الرأس.
وناحت ضلوعها...
«أمي.. أمي.. قد تكون..»

وأخـذت تجري وأمام زنقـة السيـدة سمّية الضيقـة وقفت. ثم وجدت نفسها تدفع الناس لتدخل صرخت:

— أمي.. أمي..

وجدت بـاب المنزل مفتوحا إنـدفعت إلى غرفة أمهـا وجدتها في الفراش حضنتها وراحت تبكي.

— ماذا هناك وأين اخوتي يا أمي؟

— في بيت الميت..

— الميت؟؟ ومن الميت..؟؟

— عبد الحميد.

—عبد الحميـد مات؟؟ مات يا أمّي؟؟ ألم يقل لك في حيـاته شيئا عنّي؟؟

— كان يزورني أحيانا ولا يقول شيئا.

أجهشت سالمة بالبكاء وتمتمت بكلمات غير مفهومة.

ناحت بكت وأبكت. إحتضنته قربته إليها إلى صدرها. توسّلت إليه بلبنها الذي أرضعته إياه، سألته أن يكذّبهم، يكذب القرآن والبيان والبخور والكفن الأبيض، أن يمزّقه ويصْرف الجموع الباكية من الدار ويغلّق الباب بمفتاحه ويقبّلها ويضحك. رَجَتْهم استرحمتهم إفتكّوه من أحضانها.

وضعوه في صندوق. حملوا الصندوق فوق الأيدي رفعوه على الأذرع. والصندوق يتخطى عتبة الدار: زغردت النسوة وعيّط الشباب..

رحمان يا رحمان هذا عبدك واليوم يا رحمان قاصد فضلك..

وتقدمهم علي وقال:

— اخرجوا به من زنقة مخلوف انه يحبها

وخرجوا به من زنقة مخلوف فالشارع الكبير باب سيدي عبد السلام فنهج سيدي يحي.

وتاه علي بعيدا بعيدا وتوفيق ورضا يسندانه. لم تكن جنازة عبد الحميد. كانت جنازته هو.. جنازة الشباب والطموح والأمال

الكبيرة والأحلام العريضة. وسمعه، خيل إليه أنه سمع عبد الحميد:

—علي! علي أتسمعني؟؟ أنا عبد الحميد..

— فعلتها. فعلتها يا عبد الحميد!!

— اليوم جمعة أليس كذلك؟؟ ها أنكم تجتمعون حسب الموعد لا «بوب» ولا هم يحزنون. فكرة أليس كذلك؟؟

— فكرة؟؟ أفكارك كثيرة وغريبة يا عبد الحميد!!

— الصندوق!! فكرة الصندوق، لو كنا في كلّ مرة تظاهرنا فيها حملنا صندوقا لنجحت مظاهراتنا وانطلت حيلتنا على البوليس.

— دوما تلعب؟؟

— وماذا في الحياة غير اللعب؟؟ إذا كانت الحياة نفسها لعبة نزعم أننا نصنع تركيبتها وفي الواقع هي التي تصمّم هيكلة مقاديرنا وتضعها طبق تصاريفها فيدخلها الواحد منا بشهادة ويخرج منها بشهادة فلا يسجّل هذه ولا هذه يظل يسجل لغيره الحياة والموت، ويضحك على نفسه وهو المتحمس لها. اننا في الحياة نضحك على أنفسنا عندما يستغرقنا الحلم داخلها لأننا وباختصار لا نملكها لا نختارها ولا نجدها عندما نكون في حاجة اليها..

وانهمرت دموع علي غزيرة،

— أتبكي يا علي؟؟!!.. أتبكي.؟؟

— أبكي من أو من؟؟ ثمّ لست وحدي كلنا نبكي لأننا نعيش في عهد تنقلب فيه آمال شبابه وطموحاته إلى جنازة، الاضراب أو مواجهة الصمت بالصمت تخريف.... لا.. تكلم.. تكلم واصرخ حتى يتردد الصدى. أخطأت، أخطأت.. ليسوا في مستوى فهم الصمت كان نذير شؤم يوم ناديت به وخططت له، الصمت حيث نذهب الآن، واني آخذك اليه حيث السكون والوحشة والفناء ومعك سوف تصمت آمالنا أمانينا ونحن أيضا.

— أفضّل ذلك يا علي لأجلك أفضل أن تصمتوا اني أخاف

عليك منهم أخاف. لولا هذا الصنـدوق ما تركوكم تجتمعون انهم قوة وأنتم ضعف.. ضعف يا علي..

وناح علي بصوت مرتفع وصرخ موجوعا،

— عد.. عـد يا ضعف.. آمنت بأننا ضعف ولكن عـد.. عد وابق مع ضعفنا وقل أن الصندوق كذبـة أردنا ونريد أن نغالط بها البوليس والحاكم والحكام والحكومة عد يا حميدو....

وغطت مـوجة من الـدمع وجهـه فامتـدت يده المرتعشـة إلى جيب سرواله تبحث عن منـديل فاصطدمت بشيء يـابس استله بسرعة فإذا هـو نفس الرسالـة التي وجدهـا في جيب قميص عبد الحميد في المستشفى.

كـان الغلاف ملطخـا بـالـدم ولا تظهر عليـه الكتـابـة مزقـه بعصبية ومن وراء دموعه قرأ فإذا هو خطه.

عيسى يوسف اللموشي

حومة السواحل في /

سيــدتي..

أختنق. أختنق في بلــد يعج بــالطــواغيت الظلم أختنق بنفس ثائرة حائرة متمردة.

تعب. تعب بها. أمشي ثقيــلا مكدودا والطـرقات بــلا محطات طـويلــة لا تنتهي واسعــة متراميــة مظلّــة. وأنــا أريـــد أن أريح جسدي، أحلم، أحلم برقدة هادئة طويلة...

— علي.. علي!!

— عبد الحميد؟!

— أفق يا علي أنا توفيق..

ومـرة واحدة رآى الفـوهة الكبيرة أمــامه وكأنّها تـدعوه اليهــا، ارتمى داخلها

— أنا أوسّد عبد الحميد..

وقال آخر:

— وأنا أيضا..

وهو يقف عند رأس عبد الحميد في القبر. رأى فرج عند رجلي صديقه يضع الصخر الكبير صخرة إلى جانب صخرة حتى ضاقت الفوهة عندها شدّه البورصالي الى فوق وأخرجه من القبر وراح يساعد فرج. وشيئا فشيئا توارى عبد الحميد.

وفاحت في الأرجاء رائحة الفناء

وظل علي ينظر إليهما وهما يعملان بهمة في تكديس التراب على الميت. ورأى الورقة التي كانت بيده وقد سقطت منه تردم وجرى تفكيره ور اء الكلمات وراء البقية....

.... «رقدة مريحة أنسى فيها نفسي وكل ما يوصلني بالحياة أريد أن أقطع كل صلة لي بالحياة وأنام. أنام نوما عميقا. فالنوم العميق طريق النسيان».

تمّ الجزء الأول

تونس 1973.

طبع هذا الكتاب
بشركة «أوربيس» للطباعة والنشر
قصر سعيد - تونس - الهاتف : 501.700

عدد الناشر : 200.68.93

الدار العربية للكتاب